جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

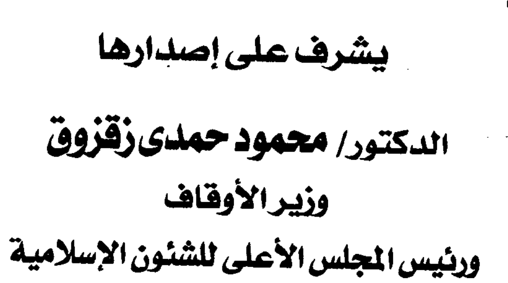
القيم الإسلامية فى تاريخ المسلمين

أ . د . عبد الحليم عويس

العدد [٩٤]

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٣هـ - فبراير ٢٠٠٣م



يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ نزل الوحى على رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، والمسلمون من خلال التربية القرآنية ، والتوجيهات النبوية ـ ينسجون حياتهم ، وفاقًا للمنهاج القرآنى والتربية النبويّة ، المتمثلة فى توجيهات الرسول القولية ، وفى قدوته العملية التى امتدت إلى ثلاثة وعشرين عامًا رأوه فيها ـ عليه السلام ـ وهو يتزوّج ، ويربى الأبناء ، ويقيم العلاقات الاجتماعية ، ويتعامل فى الأقضية والمنازعات ، وفى الحروب ، وفى القضايا الاقتصادية ..

ـ وهكذا وعلى خلاف أكثر الأنبياء ـ قدم الرسول محمد عليه السلام تجربة حياتية كاملة ، بقيتْ سنَّة أمام المسلمين ، يرجعون إليها ـ فى ضوء قيم القرآن ـ ليقيسوا حياتهم على ضوئها ، وليقتربوا من نموذجها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وكان المسلمون كلما حَزَبَهم أمر ، أو انحرفوا عن قيم إسلامهم ، وجدوا مصلحين ، يعيدونهم إلى الأصلين الكريمين الثابتين : القرآن الكريم وسنة النبىّ الصحيحة الشريفة ، فسرعان ما يقلعون ، ويستأنفون مسيرتهم فى التاريخ .

ــ ولسوف نجد فى كل عصور التاريخ الإسلامى منذ البعثة النبوية ، وحتى اليوم أفراداً وشرائح وجماعات إسلامية تعيش القيم الإسلامية بدرجة رائعة ، مع استيعابها لروح عصرها .. فإسلامها يعطيها إمكانية معاصرة كل العصور ؛ لأنه جاء خاتمًا للأديان ، صالحًا لكل زمان ومكان !!

ــ ولا يستقيم ــ مع هذا الذى نقوله ــ أنْ يدَّعى مدَّع عجلٍ لا دليل عنده إلا المقولات الإجمالية الشائعة ــ أنَّ القيمَ الإسلاميةَ لم تكن حيَّةً فاعلةً فى التاريخ الإسلامى ، وأن صلة المسلمين بقيم إسلامهم قد انتهت بموت خليفة أو سقوط دولة !!

ــ لقد عاش المسلمون بالإسلام وللإسلام ، حتى ولو انحرفت طائفة حاكمة ، أو شرذمة متفلسفة تدَّعى العقلانية والجدلية ..!!

ــ فالمجتمع الإسلامى ــ بعيدًا عن هذا الاستثناء وعما تفرضه الطبيعة البشرية ــ عاش فى ظل القيم الإسلامية أسمى حياة عرفتها البشرية ، وقَدَّم فى القضاء والاحتساب والسوق والمال والاجتماع والثقافة والتربية والعلم وغيرها ــ أفضل ما يمكن أن يسمو إليه البشر .. دون ادعاء بالعصمة أو زَعْمٍ بأن حياتهم جمهورية فاضلة مثالية ..!!

ــ فالواقعية المثالية ، والربّانية الإنسانية ، والعلاقة الأسمى بالله ، والعلاقة السامية بالإنسان ــ أيا كان هذا الإنسان ..

ــ كل هذه المعانى وغيرها عاشها المسلمون .. ليس فى المسجد أو مكان العلم فقط .. بل كانت الحياة كلها مسجدًا ، وكل شىء يتجه إلى

الله ، ويتحول إلى عبادة الله ، ما توافرت له النيَّة الصالحة والهدف الكريم ، وتحقق منه نفع الإنسان المسلم والإنسانية كلها ..

ــ وستبقى قيم الإسلام إلى يوم القيامة حية فاعلة ، لكى يبقى في الناس الخيره وليبقى لهم النموذج ، مهما افترى المفترون .. وكره الكافرون والمنافقون .. ولله عاقبة الأمور .

أ . د / عبد الحليم عويس

تاريخنا بين الإجحاف والإنصاف

لم يتعامل أكثر المؤرخين المسلمين مع التاريخ الإسلامى على أنه تاريخ ملائكة معصومين ، بل تعاملوا معه ـ وهذا تراثهم محفوظ ـ على أنه تاريخ بشر يحملون رسالة سماوية ، ويسعون إلى تحقيق مبادئها فى حياتهم وفى حياة الناس .

وقد يصيبون فى ذلك وقد يخطئون ، وقد يقتربون من القيم والمبادئ التى آمنوا بها وقد يبتعدون .

لكن أعظم ما تَفَوَّقُوا فيه على سائر أهل الأديان أنهم حافَظُوا على أصولهم الثابتة فلم تَنَلْها يد التحريف ، ولم تلعب بها الأهواء ، بل بقيت هادية للبشرية ، وحجة عليها ، وكان ذلك بوعد من الله وعون منه .

وإلى جانب ذلك نجحت الأمة الإسلامية ـ أيضاً ـ فى أن ترتفع فى كثير من أحقاب التاريخ إلى مستوى رفيع تسمو فيه على كل عوامل الهبوط وتهب نفسها لله ، وتجاهد فى الله حق جهاده عبر مساحة واسعة من ميادين الجهاد ، عقدياً واجتماعياً وإعلامياً وفكرياً واقتصادياً .. وبما أن الإسلام خطاب لجميع الناس ولجميع الأمة ،

وبما أنه لا يعرف طبقة محددة " كهنوتيـــة " تشـــعر بأنــــها وحدهــا المسئولة تحت مسمى (رجال الدين) ، بـــل إن جميـــع المســلمين مسئولون مسئوليات متفاوتة حسب الكفاية والإمكانات والمواقع التـــى يحتلونها فى الهرم الاجتماعى والسياســـى .. لــذا تحملــت الأمـــة الإسلامية كلها مسئوليتها فى تطبيق تعاليم الإسلام فى حياتها ، وفـــى دعوة غيرها إليه ، وبذلت كل ما تستطيع فى سبيله .. وعلى يد أفراد ــ تجاراً كانوا أو رحالة أو دعاة ــ انتشرت الدعـــوة الإســلامية ، ودخلت شعوباً كاملة فى الإسلام .

ولم يكن للمسلمين هيئة دعوية شبه (بابوية) تحركــــهم ، كمـــا أنهم لم يتجهوا ــ فى الأغلـــب للقيـــام بواجبـــهم ــ لا فـــى داخـــل المجتمعات الإسلامية أو خارجها ــ غالباً ــ بتأثير دعاية حكوميـــة ، بل كانوا يعتمدون ــ بعد الله ــ على شعورهم الإسلامى وإمكاناتــــهم الذاتية دون أن يعنى ذلك عدم وجود مساعدات كثيرة للدعوة قــــامت بها دول المسلمين .

وفى ظل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى هـــى مسئولية كل مسلم ، سار المجتمع يعالج نفسه ، ويسدّ ثغراته ، ويستأنف الإقلاع نحو مبادئه كلما انحرف بعض أفراده أو مؤسساته عنها .

وهكذا فإن مسئوليات البناء ، والعمل ، والجهاد ، والإصـــلاح ، والتغيير ، والدعوة، مسئوليات قام بـــها الجميــع ، وبالتـــالى بنيــت الحضارة الإسلامية على أكتاف الجميع .

ولكى نتعرف التعرف الصحيح علـــى الحضـــارة الإســـلامية ، ونحكم ـــ بالتالى ـــ على التاريخ الإسلامى ومدى ارتباطـــه بصفتـــه الإسلامية . فإن المنهج العلمـــى يفـــرض علينـــا أن نتتبـــع الفئـــات الاجتماعية التى صنعت هذه الحضارة من زرّاع إلى صنّاع إلى تجّار إلى علماء .. ومن ثم نرصد شبكة علاقاتها وأنماط سلوكها ، لننتـــهى إلى رأى محدّد فى مدى اقترابها أو ابتعادها عن مبادئها .

وهل كانت هذه الفئات ـــ وهى تصوغ حياتها الفردية أو العائليـــة أو الاجتماعية فى إطارها الصغير أو الكبير ـــ تحتكم إلى الإســـلام ، أو أنها كانت تعيش بعيداً عنه ؟

وهل كانت الجماعة المسلمة مجرد انعكاس لنظام الحكم ترتبـــط بمستوى ولائه للإسلام ، وتطبيقه لشريعته ؟ أو أنها كـــانت ترتبـــط بالإسلام وشريعته وتصوغ حياتها وفقهها .

إن الحكم على التاريخ الإسلامى يقتضى تشريعاً شـــاملاً لكـــل شرائحه وشبكات علاقاته ، ولا يصلح ـــ إطلاقاً ـــ أن نلقى الأحكـــام إجمالية وعفوية ، فضلاً عن أن تكون هذه الأحكام قد فقـــدت الحـــد

الأدنى من شروط التحليل العلمى والمنهجية السليمة للبحث التاريخى بالمعنى التاريخى العام ، الذى يرصد شتى الجوانب الفاعلة فى الحياة ، عقدية وثقافية ، واجتماعية واقتصادية وسياسية !!

التاريخ الإسلامى والإسقاطات العلمانية

ليس علمياً ، ولا يتساوق مع منهجية البحث ولا أخلاقياته ــ أن يُسقط صاحب نزعة مذهبية فكره المسبق وأحكامه الإجمالية على حضارة كاملة ممتدة زماناً ومكاناً كالحضارة الإسلامية ، ومن ثم يعمد بجرأة فيلْغى ــ بصفحات محدودة يكتبها ــ هويّة هذه الحضارة ، فيزعم أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة إسلامية .. وإنما هى حضارة علمانية !!

وليس من العلم ولا من منهاج البحث التاريخى أن يتجاهل مفكر مجموعة العناصر التى تقوم عليها شبكة العلاقات الاجتماعية ، والبنْية الفكرية والأخلاقية التى تسود المجتمع ، والتى هى بالنسبة للمجتمع الإسلامى روح عقدية وأخلاقية فاعلة فوق بنود القانون .

وبهذا التجاهل للبنْية الأساسية (للحياة فى مجتمع المسلمين) يصدر الأستاذ (محمد أركون) " الكاتب الفرنسى الجنسية ذو الأصل الجزائرى ، والمشرف على الدراسات الإسلامية فى السوربون الجديدة (الثالثة) بباريس ، والحاصل على رتبة (فارس) من الكنيسة الفرنسية " .. يصدر هذا الفارس حكمه على الحضارة

الإسلامية .. ويدَّعى أن الشريعة الإسلامية تخلّت عن مكانها فى حياة المسلمين بعد انتهاء عصر الراشدين ، وأن حياة المسلمين حياة مصلحية (علمانية) لا علاقة لها بالإسلام !!

ومن خلْف (أركون) ثمة تلامذةٌ يُغرسون فى البلدان الإسلامية ليبذلوا كل جهدهم فى نشر هذا الفكر ، وفى الدعوة إلى العلمانية ، ومقاومة تطبيق الشريعة ، بدعوى أنها لم تطبق ، ولا تصلح للتطبيق .

ونحب أن نؤكد هنا أن هؤلاء العلمانيين إنما يمثلون ــ فى الحقيقة وبعيداً عن أية محاولات للتورية ــ موقفاً رافضاً رفضاً للإسلام عقيدة وشريعة وحضارة ، ونفْياً لحق هذا الدين فى أن يكون منهاج حياة ..

وأكثرهم يرفض الأديان كلها ، ويرفض أصالة الوحى ، ويرى أن الإنسان هو مخترع الوحى ومؤلف الكتب السماوية كلها .. وحسبنا هنا أن نشير إلى مقولتين قالهما زعيمان من زعماء هذه العلمانية ، وهما : محمد أركون ، وحسين أحمد أمين ؛ لندرك أن هذا الاتجاه العلمانى إنما يسعى من وراء ادعاءاته المختلفة إلى القضاء على الإسلام كله ، وجعله ــ عند أحسن الفروض ــ مجرد (إسلام روحى) محصور فى المساجد وبعض التقاليد والأحفال ..

إن الأستاذ (محمد أركون) ينتهى بعد رفضه الكامل لحقيقة أن الإسلام دين ودنيا ، وعقيدة وشريعة إلى القول الصريح الذى يكشف لنا خلاصة هدفه ..

فيقول :

" إذا ما نظرنا للتاريخ بكلّيته ضمن هذا المنظور فإنه يصبح ممكناً تعبيد (أو تعزيل) الطريق وتمهيده نحو ممارسة علمانية للإسلام . هذا شيء مفهوم . ولكن السبب فى ذلك – لنكرر هذا مرة أخرى – ليس راجعا إلى الإسلام كإسلام ، أو إلى طبيعة الجوهر والأزلية .. وذلك أن الإسلام كالمسيحية ، كلاهما يشتغل بالطريقة نفسها ، وإنما هو عائد إلى أن المجتمعات (الإسلامية) لم تعرف أن تولد حتى الآن فكرا نقديا كبيرا تجاه تراثها الخاص ، كما فعل الغرب ، إن عملا كهذا لا يوجد فى الإسلام ، أو بالأحرى إنه يكاد يشرع فى الوجود [1] .

فهكذا يحدد لنا " أركون " هدفه الموجز .. إنه المساواة بين الإسلام وغيره من الأديان التى انحصرت فى الجوانب الروحية .

---

(١) تاريخية الفكر العربى الإسلامى ص ٢٩٥ ترجمة هاشم صالح – نشر مركز الإنماء القومى (بيروت) ط ١/١٩٨٦م .

ويجب على المسلمين نَقْد دينهم نَقْداً معلوم الهدف سلفاً ، وهو إخضاعه للعلمانية .. بحيث يكون محصوراً فى الطقوس ، ولا صلة له بالحياة .

وفى موضع آخر يصرح أركون بأن العلمنة : " متضمنة أو موجودة فى القرآن وفى تجربة المدينة .. وفى الدولة الأموية والعباسية اللتين هما دولتان علمانيتان وليستا دولتين دينيتين " . أما التنظير الأيديولوجى الذى قام به الفقهاء فيمثل إنتاجاً عرضياً محكوماً بظروف وقته ، والهدف منه ــ كما يرى أركون ــ " تغطية واقع سياسى وتاريخى معنىّ بحاجات دينية ذات مصداقية " [١] .

وخلال مؤتمر عقده مركز دراسات الوحدة العربية فى القاهرة ما بين (٢٤ و ٢٧ سبتمبر ١٩٨٤م) تحت عنوان (التراث ، محتواه وهويته ، إيجابياته وسلبياته) ، جعل أركون الدين والشريعة من جملة التراث ، وهو تصور مرفوض ؛ إذ التراث عمل الفكر والعقل ، ولكن الدين والشريعة من الله سبحانه وتعالى ..

والمهم أنه فى بحثه لم يذكر (إيجابية) واحدة للتراث . بل دعا إلى ضرورة نفيه وعلمنته بصراحة قائلاً :

---

(١) محمد أركون : القدسىّ والثقافى والتغيير ــ مفهوم السيادة العليا فى الفكر الإسلامى ــ مقال بمجلة الفكر العربى المعاصر ، عدد ٢٩ مايو ١٩٨٦م .

إن الأمم الغربية أنجزت وحدة سياسية بتوطيد الاتجاه العلمانى ، وإهمال المعيار الدينى ، بينما بقيت الشعوب العربية متشبثة بالعقائد الدينية الخاصة ؟!(١) ..

ـ وقد لفت تحيز أركون غير العلمى ضد الإسلام وتراثه بطريقة مطلقة وثابتة نظر الحاضرين ، فأدانوا اتجاهه ، وكان من جملة المعلقين الأستاذ (جلال أمين) الذى عقب بقوله :

" إنى أتعجب أشد العجب من وصف ورقة أركون بأنها مساهمة فى اتجاه تجديد الدين .. فإذا كان هذا تجديداً للتراث . فكيف قتله وتحقيره ؟!! وقد حرتُ حيرة عظيمة فى محاولة البحث عن جانب إيجابى واحد للتراث ذكره أركون ، لكن ورقته لا تجد للتراث إلا السلبيات وتحتفظ بالإيجابيات للاستعمار والمستشرقين (٢)..!!

أما حسين أحمد أمين الذى يمثل (النموذج الثانى) الذى اخترناه تعبيراً عن هذه المدرسة التى تعمل على إلغاء حضارتنا ، وتأكيد عدم وجود الشريعة الإسلامية بعد الراشدين فى تاريخنا .. فيقول فى الندوة نفسها :

---

(١) انظر أعمال مؤتمر التراث وتحديات العصر ، القاهرة ١٩٨٤ وانظر : محمد بريش : علمنة الإسلام ـ على عتبة المشروع ـ مجلة الهدى المغربية ١٦ صفر ١٤٠٨هـ .

(٢) المرجعان السابقان المكان نفسه .

" إن قراءاتى فى البلوى وابن أيبك الدوادارى وابـــن الفـــرات والمقريزى وابن تغرى بردى والصيرفى والسخاوى والسيوطى وابـن إياس والجبرتى وعشرات غيرهم من المؤرخين المسلمين .. أحـــالوا هذه الشبهة عندى إلى يقين بأن الإســـلام لـــم يكـــن لا فـــى مصـــر ولا غيرها يسود فكرنا أو ثقافتنا أو سياستنا أو عقيدتنا أو نظامنـــــا ، ولا كان ما يسمى بالشريعة الإسلامية مطبقاً فى أى وقت من الأوقات عدا زمن النبى والخلفاء الراشدين[1] (..) ..

ثم يقول : حسين أحمد أمين :

" وأما عن الدين والعقيدة فإن دين العامة فـــى الأقطـــار التـــى فتحها العرب ، كان وربما لا يزال إلى يومنا هذا لا يعدو أن يكـــون إعادة تفسير للمظاهر الوثنية لديانتها القديمة تفسيراً إســـلامياً ، فـــى حين انتشرت بين جموعها من صنوف الانحلال الخلقـــى والدعـــارة والاستخفاف بتعاليم الإسلام ما تملأ الأمثلة له صفحات الكتب .. [2].

وبعد هذا الجدل الذى يريد أن يلبس ثوب البحـــث التـــاريخى والعلمى يكشف لنا (حسين أمين) عن حقيقة رفضه للإســـلام مثـــل

---

(١) انظر ندوة التراث وتحديات العصر ، طبعة مركـــز دراســـات الوحـــدة العربيـــة . ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ / أغسطس ١٩٨٥ بيروت .

(٢) المرجع السابق .

الأستاذ أركون ، فيرى أن فتح الإسلام لمصر غزوٌ فكرىٌ رجعىٌ تجب مقاومته .. مثلما نقاوم صور الغزو الفكرى الأخرى .. إنه يقول بصراحة :

" وما القول فى النظم الوافدة من شبه الجزيرة العربية إلى مصر فى القرن السابع الميلادى ، ومنها التنظيمات القانونية والحقوقية التى يدعونا البعض إلى العودة إليها [1] .

فهكذا لا يستطيع دعاة هذه المدرسة الذين يتمسّحون فى دعوى (عدم تطبيق الشريعة بعد الراشدين) أن يخفوا خبيئتهم ولا حقيقة أهدافهم ، بل يختصرون علينا الطريق ، ويعلنون بغضهم للإسلام كل ، بطريقة صريحة لا تحتمل الشك أو التأويل !!

---

(١) المرجع السابق .

محمد أركون وعلمنة التاريخ الإسلامى :

انطلاقاً من أن الأستاذ محمد أركون من أكبر أئمة هذا الاتجـاه ، ومعظمهم ــ تقريباً ــ مجرد (شارح له) أومن شـارحى أفكـاره ، فسنكتفى بالتركيز على عرض أفكاره نموذجاً لهذا التيار الذى يُشَـرِّح ديننا وتاريخنا تشريحاً علمانياً [1] **مع ملاحظة أن بحثنا بحث علمى تقريرى وليس رداً على أركون أو غيره ، وإنما ضربنا بأركون ــ مثلاً ــ لتقديم نموذج لمنهج هؤلاء العلمانيين الذين ينكرون وجود الشريعة فى التاريخ الإسلامى بعد الراشدين .**

يتتبع الأستاذ محمد أركون مراحل التاريخ الإسلامى الكبير (فى مساحة لا تزيد عن ثلاث صفحات) وهى :

مرحلة العصر الراشدى (١١ــ ٤١هــ)

مرحلة العصر الأموى (٤١ــ ١٣٢هــ)

ومرحلة العصر العباسى (١٣٢ــ ٦٥٦هــ)

وعصور ما بعد العباسيين من أيوبيين ومماليك وأتـراك حتـى اليوم (٦٥٦ ــ ١٤١٠هــ) أى الأربعة عشر قرناً المنصرمة ..

---

(١) تماماً كما شرحهما الشيوعيون تشريحاً ماركسياً ، وهولاء قد لقوا مصرعـهم وألقـوا فى قمامة التاريخ وسيلحق بهم العلمانيون بإذن الله !!

ولا يستثنى منها الأستاذ أركون مرحلة تلتزم بالإسلام إلا عصر الرسول والراشدين (١ـ٤١هـ) مع بعض تحفظاته أيضاً على هذه الفترة .

وكل التاريخ الإسلامى بعد ذلك عاشه المسلمون فى رأى أركون وفق مبادىء القوة والمصلحة السياسية النفعية البحتــه ، ولـم يكـن الإسلام إلا ستاراً وهمياً استعانت به الحكومات فـى تثبيـت نظمـها وإحكام سيطرتها .

وفى البداية يشير " أركون " إلى المراحل التأسيسـية للتـاريخ الإسلامى فيقول " ينبغى أن نتجنب خطأ شائعاً ومنتشـراً جـداً فـى الأدبيات الاستشراقية وعند المسلمين على سواء .. والذى يقول بـأن الإسلام لم يعرف أبداً فى تاريخه التفريق ما بين الزمنى والروحـى ، هذه فكرة ثابتة مغروسة فى نفوس المستشـرقين وعنـد الجمـهور الغربى ككل .. وإذا لم نتخلص فوراً من هذه النظرية فإننى أقول لكـم بصراحة إن لقاءنا هذا لن يكون له معنى [1] .

---

(١) تاريخية الفكر العربى الإسلامى / ترجمة هاشم صـالح ، الطبعـة الأولـى ، نشـر بيروت ١٩٨٦م ، ص ٢٨٠ . ونلاحظ أن أركون يضيق بموضوعية بعض المستشـرقين وإنصافهم للإسلام .

ويستمر أركون

" فى الواقع لقد وجدت سابقاً فى المجتمعات المدعوة إسلامية تجارب معمقة يمكن لنا أن نصفها بالعلمانية ، لكن هذه التجارب لم تصل إلى درجة الوعى الواضح بذاتيتها ، ولم تلق فى يوم من الأيام لها تنظيراً " .

ويقول أركون :

" لنعد إلى التاريخ ، إلى ما حدث تاريخياً بالفعل والذى أدى إلى ولادة الخلافة ، كان النبى محمد قد مات عام ٦٣٢م [(١)] بعد أن عاش عشرين عاماً كاملة تجربة فريدة كان فيها القائد والموجه ، هذه التجربة التى يجب تسميتها " بتجربة مكة والمدينة " انطوت على معطيات من نوع دينى ونوع دنيوى ، خاصة بأعمال قائد لجماعة محددة فى مجتمع محدد ، إننا نستخدم قصداً كلمة " تجربة " ذلك أن الأمر يتعلق فعلاً بمجموعة المواقف العملية المحسوسة المعاشة من قبل رجل قائد ، ضمن جماعة بشرية . هذه المواقف العملية والتصرفات الشخصية القيادية سوف تتخذ فيما بعد قيمة مثالية نموذجية ، وسوف يؤثر ذلك على كل الأحداث القادمة " و " فى عام ٦٣٢م وبعد اختفاء النبى مباشرة ، كان لابد لمسألة استمرارية

---

(١) لنلاحظ ـــ دائماً وبثبات فى كتاب أركون رفضه الحاكم لاستعمال التاريخ الهجرى!!.

التجربة من أن تطرح نفسها : من الذى يستطيع مواصلة التجربة دون نقص أو خور ؟ " [1].

هكذا يزعم أركون ، متجاوزاً الأرضية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الإسلامية !! .

والحقيقة التى نؤمن بها ويتجاهلها أركون أن أحداً من الصحابة — مع الفتوحات والتعامل مع أنماط ومشكلات حضارية جديدة — لم يفهم أن تكون التجربة هى نفسها فى مستوى (المثال) دون نقص أو خور ، أى دون تقدير للواقع البشرى والظروف والتحديات .. وإنما سعى الجميع ، منطلقين من الكليات والثوابت الصالحة لكل الأزمنة والأمكنة للتفاعل مع المستجدات ، وتقديم نماذج حضارية متعددة الأشكال متنوعة العطاء ، ومحتفظة فى الوقت نفسه بالصيغة (الإلهية) الإسلامية !!

ويعقب أركون على تساؤله فيقول : " إن الإشكال النظرى الذى طرحته مسألة إعادة إنتاج النموذج (إنتاج التجربة : تجربة مكة والمدينة) لم يحل أبداً فى تاريخ الإسلام بالشكل المشروع ومن وجهة نظر ثيولوجية . هذا ما يدعونا إلى التأكيد بأن السلطة على

---

(١) المكان السابق .

مدار التاريخ الإسلامى كله كانت سلطة زمنية مضبوطة (أو موجهـة) من قبل السيادة الدينية . هذه حقيقة مهمة جدا تعاكس تلك التصـورات الكبرى التى رسخت فى أذهان الجماعات الإسلامية كلـها . هكـذا تلاحظون كم هو مهم دور الباحث المحلل للأمور فى تعرية الأوهـام الباطلة . إننا لا نريد أن نكتب التاريخ على هوانا ، إنما نريد فقـط أن نرى وأن نعرف ماذا حدث بالفعل منذ بدء التجربة التأسيسية وحتـى يومنا " [1] .

وبصرف النظر عن نصائح أركون ، وهى نصائح يدعيها كـل الكتاب وأنصاف الكتاب ، وبصـرف النظـر عـن هـذه الـروح الإعلامية ، فإننا نمضى مع أركون لنصل معه إلى المحاط التى يريـد أن يوقفنا عليها .. إن أركون يتساءل عند هذه النقطة .. " مـا الـذى حدث بالضبط حتى وصلنا إلى هنا ؟ أى ما الذى حدث بالضبط حتـى تشكلت فى الذاكرة الجماعية (فى الوعى الجماعى) هـذه الصـورة المثالية اللاتاريخية للتاريخ الإسلامى ؟ " ويجيب أركـون : " كـان المؤرخون السابقون والفقهاء الثيولوجيون قد نسجوا حكاية مسلسـلة للأحداث التى جرت منذ وفاة النبى مؤكدين على شرعية الخليفة الذى كان عليه أن يتحمل مسئوليات النبى (..).. إنها تتركز ــ (أى تلـك

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

الحكاية التى نسجها المؤرخون والفقهاء فى رأى أركـــون) فـــى أن النبىﷺ قد عرّف أربعة خلفاء حكموا فى المدينة من سنة ٦٣٢م إلـــى سنة ٦٦١م (١١ــ ٤١ للهجرة) .

" هؤلاء الخلفاء : أبو بكر (٦٣٢م ــ٦٣٤م)، عمـــر (٦٣٤م ــ ٦٤٤م)، عثمان (٦٤٤م ــ٦٥٦م) وعلى (٦٥٦م ــ٦٦١م) ثلاثة من هؤلاء الخلفاء ماتوا قتلاً .. إن القتل فى نظر عالم الاجتماع هو فعـــل ذو دلالة بالغة . أما فيما يخص الثيولوجى فإنه حدث عابر من حوادث التاريخ سببه أناس أشرار خرجوا عن طريق الحق ، طريق الله "(١) .

أركون .. وتفسير غير موضوعى لقتل الخلفاء :

ويعقب أركون على هذه الحكاية التى يزعم أنـــه قـد نسـجها المؤرخون والفقهاء حول الراشدين الأربعة بقوله : " إن كل الكتـــاب الأرثوزكسية (يقصد السنة الأصولية) تعطـــى صـــورة نموذجيـــة ومثالية عن الخلفاء الأربعة الأول ، وبالطبع فأركون يتخـــذ ــ كمـــا تدلنا إشارته ــ من واقعة قتل ثلاثة خلفاء ــ دليلاً علـــى أن الأمـــر لم يكن نموذجياً ولا مثالياً ، وبالتالى يدعونا إلـــى القيـــام " بتحليـــل سوسيولوجى تاريخى للأحـــداث : " (٢) و " كيـــف يدعـــى الحكـــام

---

(١) المرجع السابق ٢٨٢ .

(٢) المكان السابق ، وهو يكرر الكلام نفسه عن قتل الخلفاء الثلاثة فى كتابـــه المشـــترك (الإسلام الأمس والغد ص ١٢٣ ، طبعة بيروت ١٩٨٣) .

إلى مسلك هؤلاء " ؟ [1].

وقد غاب عن أركون أن قتل الخلفاء دليل لهم لا عليهم .. وأنهم لو كانوا جبابرة مستبدين لما طمع فيهم طامع .. ولو أن أركون تلفت حوله وعرف أن الرئيس الأمريكى " جون كيندى " مات مقتولاً ، وأن آثار رصاصة لا تزال تعيش فى رقبة الرئيس الأمريكى الأسبق " رونالد ريجان " .. بينما لم يستطع أى سوفيتى أن يمس شعرة من الطاغية ستالين ولا من خلفائه حتى بريجنيف) ولا من بقية الطواغيت .. لو أدرك أركون هذا ــ ومثله كثير فى حياة الشعوب ــ لعرف أن قتل الرؤساء قد يكون دليلاً لهم لا عليهم (!!) فلا مجال لغمز الراشدين بأنهم قتلوا .. وقد هدد أبو لؤلؤة المجوسى عمر بما يفهم منه القتل ، لكن عمر لم يقبض عليه (لعدم توافر الأدلة) لكن طواغيت كثيرين يدمرون مدناً بأكملها من أجل مجرد الظن فى ولاء بعض سكانها !! .

---

(١) الإسلام الأمس والغد ، ص ١٢٣ .

الأمويون والعباسيون فى المنظور العلمانى

وننتقل مع أركون إلى المرحلة التالية .. مرحلة الأمويين ، يقول أركون : " كان معاوية الذى ينتمى تاريخياً إلى العائلة المنافسة لعائلة النبى قد اغتصب السلطة بالقوة والدهاء . لقد استطاع أن يخلف علياً الذى سقط قتيلاً فى ساحة الصراع . حذف بالتالى آخر ممثل لعائلة النبى ، كان معاوية فى الأصل حاكماً لسوريا التى فتحت عام ٦٣٦م، وقد نقل مركز السلطة من المدينة إلى دمشق . يعتبر هذا العمل ذا دلالة بالغة ، كما لو أن البابا مثلاً قد نقل البابوية من روما إلى تورين . هكذا وصلت السلالة الأموية إلى الحكم واستمرت قرابة القرن ، أى حتى عام ٧٥٠م . كل هذه الأحداث الأساسية ليست إلا عملاً واقعياً لا علاقة له بأى شرعية غير شرعية القوة " [١] .

" ينبغى علينا اليوم أن نفكك الأرثوذكسية (يقصد السنة) المغلقة من الداخل . ولن يتم ذلك إلا ببحث تاريخى محرر يمكن له وحده أن يوصلنا إلى أبواب العلمنة فى الإسلام . وقبل اختتام هذه

---

(١) تاريخية الفكر العربى الإسلامى ص ٢٨٣ .

الملحمة التاريخية ينبغى الإشارة إلى أن السلالة العباسية كانت قد حلت محل الأمويين بدءاً من عام ٧٥٠م واستمرت حتى عام ١٢٥٨م " .

" وفى عام ١٢٥٨م — يقول أركون — افتتحت بغداد من قبل المغول مما أدى إلى نهاية سلطة خلفاء بنى العباس . فى الواقع ، أن الخلافة العباسية كانت قد أصبحت وهمية إلى حد كبير بدءاً من القرن التاسع الميلادى . وراحت السلطة تمارس فعلياً من قبل أمراء متعددين وصلوا إليها عن طريق القوة ، تماماً كما حدث فى السابق . ولم يكن لسلطتهم أية علاقة بالإطار الإسلامى للسلطة " [1].

ويعقب أركون — بعد إيراد نصه السابق عن الدولة العباسية .. بقوله : "وهكذا يستمر الناس يرددون كالببغاوات أن الإسلام يخلط بين الروحى والزمنى أو أنه دين ودنيا . إن هذا ليس صحيحاً أبداً وليس معقولاً علمياً — اللهم إلا إذا قبل المؤرخ الخضوع للروح التقليدية المهيمنة الإسلامية التى تطغى عليها الأديان والتصورات الدعوية !! " [2].

ففى رأى أركون — كما نرى — أن الخلافة العباسية هى الأخرى بعد الأموية لم يكن الإسلام فيها دينا ودنيا وروحياً وزمنياً ..

---

(١) المرجع السابق ، ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق .

وإنما كان علمانياً .. أى أنه ـ من وجهة نظر أركون ـ من سنة ٤١هـ بالتحديد ، وهو عام الجماعة وحتى سنة ٦٥٦هـ .. أو بتعبير أركون الرافض للتاريخ الإسلامى الهجرى (٦٥٦هـ ١٢٥٨م) لم يكن الناس فى العالم الإسلامى يحيون حياة إسلامية ، ولا وفق تعاليم الإسلام .. فلمدة تزيد على ستة قرون ، وبعد ومضة من التاريخ لا تزيد عن نصف قرن هو عمر الدولة الإسلامية فى المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأيام الراشدين توقف وجود الإسلام فى حياة المسلمين ، وأصبحت الحياة علمانية .. [1] .

وماذا بعد العباسيين ؟!!

ويستمر أركون فى تشريحه لتاريخنا بهذا المبضع العلمانى فيتحدث عن الذين جاءوا بعد العباسيين بهذه الرؤية الإجمالية الإسقاطية المسبقة .. فيقول :

" بعد المغول تأتى موجتان متعاقبتان من الأتراك : الموجة الأولى ترد من آسيا الوسطى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهؤلاء هم الأتراك السلجوقيون الذين وقفوا فى وجه الحملات

(١) المكان السابق .

الصليبية الأولى . ثم ترد الموجه الثانية فى القرن السادس عشر ، هؤلاء هم الأتراك العثمانيون الذين وقفوا أيضًا فى وجه الهجمة المتزايدة للغرب فى حوض البحر المتوسط وفى المغرب ، عندها أخذت سلطة العثمانيين تمتد لكى تشمل كل أفريقيا الشمالية من مصر إلى المغرب ، بطريقة عسكرية حسب الظروف " (١).

وهذه سبعة قرون أخرى يضيفها أركون إلى القرون الستة السابقة تدخل فى نطاق العلمانية التى انفصلت فيها الحياة الإسلامية عن الشريعة الإسلامية من هذه السنة الحاسمة .. (سنة الجماعة) .. وقد كان حظ القرون الستة السابقة أفضل .. فإن الشريعة الإسلامية قد ألغيت منها – فى منهج أركون التحليلى التفكيكى – بنحو ثمانية سطور ، بينما ألغيت الشريعة الإسلامية من التاريخ الإسلامى فى القرون السبعة الأخيرة بنحو خمسة سطور فقط أى أن إلغاء الإسلام من وجود الأمة التى ترفع رايته ، وتطرد الصليبيين باسمه ، وتصنع حياتها وفق عباداته ومعاملاته ، وتبالغ لدرجة وجود طوائف الزهد والرباط .. هذا الإلغاء يكفيه لكل قرن أقل من سطر واحد .. وهذا هو المنهج التحليلى " التفكيكى الأركونى " !! .

" وفيما يخص المغرب فقد راحت سلالات مختلفة تنبثق عن طريق القوة هنا وهناك منذ نهاية الأمويين – يقول أركون – إما من

---

(١) المكان السابق .

أجل تجنب الاضطهاد ، وإما من أجل تأكيد شخصيتها المحلية . هكذا راح الإدريسيون فى المغرب ينسبون أنفسهم إلى الشريعة النبوية . ثم نشهد بدءاً من القرن الحادى عشر الميلادى بـــروز القـــوى القبليـــة المحلية ـــ أى البربر ـــ الذين سيولدون سلالات حاكمة جديـــدة فـــى فاس ومراكش وتلمسان والقيروان ..

كل هذه السلالات تدعى حماية الإسلام وتشير إليه مـــن أجـــل تثبيت قواعد حكمها . ذلك أن الإسلام كان قد أصبح المرجـــع الـــذى لابد منه من أجل تسويغ سياسى . لكن السلطة الحقيقة لهذه الســـلالات لم تتجاوز العواصم لكى تشمل مختلف أنحاء البلاد . على هذا الشـكل راحت فكرة السلالات الحاكمة باسم الإسلام تترسخ فى هذه المنـــاطق . فكرة وهمية لا أساس لها فى الحقيقة . لكن هـــذا لـــم يمنعـــها مـــن أن تستمر حتى يومنا هذا فى المغرب " [١].

ويتحدث أركون عن واحدة من أعظم الدول المغربية ـــ إن لـــم تكن أعظمها ـــ بأسلوب يكشف عن جهله بأبسط القضايا التاريخية .. حتى بتاريخ الجزائر التى كان ينتمى إليها يوما ما ..

يقول أركون : (ونلاحظ هذا الوضع جلياً فى جماعة المرابطين فى الجزائر الذين تركوا الأمة ونفوا أنفسهم إلى أعمـــاق الصحـــارى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٦

على بعد ٦٠٠كم من الجزائر العاصمة ، وذلك منذ القـــرن التاســع الميلادى . ومجموع الجزائريين يعتبرونهم " هراطقة " . لكـــن ، إذا ما نظرنا للأمور من وجهة نظر تاريخية وحتى ثيولوجية ، فمـــن ذا الذى يستطيع أن يثبت ذلك أو يؤكده ؟ إننا نعلم أن كلمـــة الخـــوارج كانت قد حُرفت عن معناها الأصلى من قبل الأرثوذكسية السنية لكـى تأخذ معنى سلبياً ، معنى ترك الإجماع والأمة . فى الواقع إن المعنى الأصلى للكلمة (أو المعنى البدوى لها) هو فعلاً الخروج ، لكن ليس الخروج عن الأمة وإنما الخروج إلى ساحة القتال للجهاد فى ســـبيل الله ، هكذا تلاحظون أن الأمر قد اختلف جداً !! [١] .

فهذا النص الذى كتبه أركون عـــن الـــدول المعروفـــة باســم المرابطين يدل على أنه لا يعرف شيئاً عـــن هـــذه الـــدول ، فدولـــة المرابطين قد نشأت على يد عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيـــم ، ثم أبى بكر بن عمر اللمتونى ، ويوسف بن تاشـــفين ، فـــى القـــرن الخامس الهجرى [٢] (منتصف القرن الحادى عشر الميلادى) .. ولم تنشأ هذه الدولة فى القرن التاسع الميلادى كما زعم أركون .. وإذاً لم يكن يقصد بمصطلح المرابطين دولـــة المرابطيـــن ، وإنمـــا قصـــد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٢) انظر : ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلـــس والمغـــرب ٤/٧ وما بعدها بتحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٧.

" الخوارج " الإباضية الذين أنشأوا دولتى بنى رستم فى تاهرت وبين واسول (مدارار) فى سجلماسة فقد أخطأ أيضاً ، ودلنا على أنه لم يقرأ من تاريخنا الإسلامى الذى يحكم عليه ويسعى إلى إلغائه شيئاً معتبراً .

فدولتا الخوارج ــ رستمية ومدرارية ــ نشأتا فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) [1] وليس التاسع .. ولم يطلق عليهما أحد من المؤرخين مصطلح المرابطين (٤٥٠ـ ٥٤٠هـ) ..

ولم يحدث أن اعتبر الجزائريون ــ كما يزعم أركون ــ دولتى بنى رستم وبنى واسول (هراطقة) بل إنهم يشيدون بدور الدولتين فى نشر الإسلام وفى تعمير الصحراء ، وفى الوقوف ــ قدر استطاعتهما ــ ضد الفاطميين الإسماعيلية الباطنية الذين أجهزوا عليهما فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى) [2] !!

وهكذا يدلنا هذا النص ، وبقية النصوص الإجمالية المرتبكة التى يكتبها أركون بطريقة تعالمية فى الظاهر ، لكنها غاية فى الجهل فى الواقع الذى يكشفه المؤرخ المتخصص .. تدلنا هذه النصوص على مدى اللامنهجية التى بها عالج أركون تاريخنا الإسلامى !!

---

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧، ١٥٦ بتحقيق كولان وبروفنسال ، طبع بيروت .

(٢) المرجع السابق .

المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين
(تقويم موضوعى)

من صور الخطأ التى وقع فيها كثير من المؤرخين والمفكرين أنهم خلطوا بين مسيرة الحضارة ومسيرة التاريخ ، مطبقين الخطوط السياسية الفاصلة نفسها على التيار الحضارى ، مع أن مسيرة الحضارة لا تخضع لتقلب الدول ، فضلاً عن سقوط دولة وقيام أخرى تنتمى إلى المدرسة العقدية والإشعاع الثقافى نفسه ..

وأنا أعجب حقيقة من هؤلاء المؤرخين الذين نظروا إلى سنة (٤١هـ) التى قامت فيها الدولة الأموية ، وكأنها منعطف جديد فى الحضارة الإسلامية ؟؟.

ترى هل انتهى فى هذه السنة جيل الصحابة الذين رباهم الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ أو انقرض التابعون الذين تتلمذوا على يد التلامذة الأول للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن بعض الصحابة ، قد عاشوا إلى ما بعد العقد التاسع ، أى بعد عام الجماعة بأكثر من نصف قرن كامل .. أما التابعون فقد عاش بعضهم إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية سنة١٣٢هـ .

إن ما حدث بالضبط هو أن أسلوب انتقال الحكم قد تغير من شورى مطلقة إلى شورى مقيدة نتيجة لظروف معينة لا نتعرض لها

فى هذا المقام .. أما نهر الحضارة الإسلامية فقد ظل يشق مجـــراه .. وظلت الأمة هى الأمة والمبادئ هى المبادئ ..

ونتيجة تطورات معينة ، وابتعاد عن عصر النموذج القـــدوة ، وانفتاح على حضارات متعددة ، والحصول على ثـــروات طائلـــة ــ ظهرت تجاوزات هنا وهناك ، كما تظهر فى كل المنعطفات والـــدول العظمى .. وهى تجاوزات قامت الأمة بنقدها والتنديد بأصحابها ..

إن (هاملتون جب) ــ هو مستشرق لا يمكن وصفـــه بالدفـــاع عن تاريخ الإسلام ــ يومىء إلى طبيعة التغير فى نظام الحكم عنـــد الأمويين ، فيذكر أنه " من قبيل التناقض أن يلصق الناس بـــالأمويين تلك التهمة الشائعة وهى أنهم حولوا الخلافة إلى ملك (..) .

" وهذا التناقض ذاته يوحى لنا بأنه ينبغى علينا إذا شئنا أن نفـــهم الطبيعة الحقيقية للأزمة أن ننفذ إلى ما وراء سطح الواقـــع بكثـــير ، وأن نجتهد بصورة خاصة فى تحرير أنفسنا من عادة مؤرخى العرب الذين ينظرون إلى العملية التاريخية على ضوء الأعمال الشـــخصية دون اعتبار منهم للظروف التى اكتنفت أعمـــال الأفـــراد ورســـمت حدودها ، والقضية التى أحب أن أطرحها فى هذا المقال تتخلص فـــى أن الأمويين كانوا ــ إذا جاز لنا التعبير على هذا النحـــو ــ ضحيـــة

عملية ديالكتيكية داخل المجتمع الإسلامى " [١] .

وإذا ما نظرنا إلى الخلافة الأموية [٢] بهذه النظرة — غير السياسية — التى ترصد التطور الحضارى — وليس التعبير الفوقى ، فإننا سنجد هذه الخلافة التى قدر لها أن تعيش فى التاريخ نحو قرن من الزمان — تواجه خلاله بقايا الامبراطوريات المندثرة رومية وفارسية ، وتؤصل لمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية فى العالم

---

(١) جب : دراسات فى حضارة الإسلام ص ٤٨ ، دار العلم للملايين ط٣/١٩٧٩ .

(٢) كنموذج للتحليل الموضوعى المنصف — غير الإسقاطى — نقدم هذا النص من كلام المفكر الإسلامى والمصلح الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى معالجة الصراع بين الإمام على ومعاوية — رضى الله عنهما فى صفين — يقول الإمام النورسى : أما ما وقع من حرب بين الإمام على رضى الله عنه وسيدنا معاوية رضى الله عنه وأنصاره فى واقعة " صفين " فهى حرب بين الخلافة والسلطنة (الملك الدنيوى) أى أن الإمام عليا رضى الله عنه قد اتخذ أحكام الدين وحقائق الإسلام والآخرة أساساً فكان يضحى بقسم من قوانين الحكم والسلطنة وما تقتضيه السياسة من أمور فيها إجحاف فى سبيل الحقائق والأحكام . أما سيدنا معاوية ومن معه ، فقد التزموا (الرخصة الشرعية) وتركوا الأخذ بالعزيمة ، لأجل إسناد الحياة الاجتماعية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة . فعدوا أنفسهم مضطرين فى الأخذ بهذا المسلك فى عالم السياسة . لذا رجحوا الرخصة على العزيمة فوقعوا فى الخطأ (أى أننا نفهم من كلام النورسى أن الخلاف يمثل وجهتى نظر ، وأن للمصيب أجرين وهو الإمام على وأتباعه ، وللمخطئ أجرًا وهو معاوية وأتباعه (ورضى الله عن الجميع (انظر النورسى المكتوبات ص ٦٨ نشر سوزنى القاهرة) .

الإسلامى الجديد والحديث عهداً بالبداوة والفكر الوثنى والرومانى السابق — وذلك مع وجود بعض التجاوزات ، خضوعاً لظروف التطور التى ألمحنا إلى بعض جوانبها سابقاً ، مما يؤكد وجهة نظرنا فى أن التغيير السياسى لا يرتبط بالتغير الحضارى .

إننا هنا نتساءل : هذه الجيوش الفاتحة التى ساحت فى معظم أقطار المعمورة من حدود الصين والهند وحتى سبتة فى المغرب الأقصى وكوفادونجا فى جبال البرانس بأسبانيا .. ألم تقم على أكتاف الجندى المسلم المجاهد الذى كان يمضى مخلصاً شبه متطوع أو نظامياً وراء القادة الذين اختارهم بنو أمية ؟ .. لقد أثبت هؤلاء أنهم مخلصون حقاً بصرف النظر عن النظام السياسى الذى انتقلوا إليه .. ولقد نشروا الإسلام فى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وطرابلس وبرقة وأسبانيا والصين والهند وبلاد آسيا الوسطى وأفغانستان وغيرها ..

وفى هذا العصر وقعت عملية التعريب ، وتم تنظيم الدواوين ، وسك العملة ، وبدأت العلوم العربية والإسلامية تكتمل صورها !!

وإذا كنا قد استشهدنا برأى (جب) فى طبيعة الانتقال من الراشدين إلى الدولة الأموية فإننا — ونحن نلقى ضوءاً وجيزاً على أبرز خلفاء هذه الدولة الذين قاموا بالفتوحات وساعدوا التطور — نتابع استشهادنا بمؤرخ أوروبى آخر من كبار الدارسين للتاريخ

الإنسانى كله ، إيماناً منا بأن شهادة هؤلاء قد تكـــون أكــثر قابليـــة لدى المدرسة العلمانية التى تسقط أحكاماً تعسفية غير متأنيـــة علـــى تاريخنا !!

إن (ول ديورانت) يقول :

(يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة فى بـادئ الأمر حيث عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشـــام ، ثـــم بتزعمه الثورة التى أوقد نارها مقتل عثمان ، ثـــم بمـــا دبـــره مـــن (الأساليب السياسية) البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فـــى ظروف جد نادرة .. ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدمـــاء من طرق معظم من أسسوا أسراً حاكمة جديدة) [١] .

وكان يجلس للناس خمس مرات فـــى اليـــوم ، وقـــد اســـتؤنفت الفتوحات الإسلامية فى عهده بعد توقف ، وكان يسمع المـــدح فـــى منافسه في مجلسه ، بل ويسمع بفضله عليه ولا يعاقب على ذلك ..

أما عبد الملك بن مروان فقد سار على خطى معاوية ، وحـــاول أن يطبق سياسته الداخلية في الجلوس للناس ، وكان من فقهاء المدينة المعروفين وقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك ، وكان مـــن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٨١/١٣ طبع مصر . الطبعة الأولى .

فاتحى إفريقية قبل الخلافة وقد استقرت قواعد الدولة فى عهده وظهر طابعها العربى واستقلالها الحضارى .

أما ابنه الوليد الأول ففى عهده ـ كما يقول ديورانت ـ (واصل العرب فتوحاتهم فاستولوا على بلخ فى عام (٨٦هـ ـ ٧٠٥م) ، أما الوليد نفسه فكان مثلاً طيباً للحكام يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة ، وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات ـ ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية ـ وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ فى دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم ولا يزال باقياً فيها حتى اليوم [١] .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١هـ) (٧١٧ـ٧١٩م) أعاد سيرة الراشدين ، واعتبر بإجماع الأمة خامس الراشدين ، وأحدث عودة حميدة شعبية ورسمية للإسلام .

وقد حكم هشام الدولة حكماً عادلاً ساد فيه السلم ، وأصلح خلاله الشئون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك ـ بعد وفاته ـ بيت المال مليئاً بالأموال [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ٨٣/١٣ .

(٢) المكان السابق .

فهؤلاء ــ كما نرى ــ (معاوية ، وعبد الملك ، والوليد ، وعمر ، وهشام) خمسة من خلفاء بنى أمية حكموا بنحو ثلاثة أرباع عمر الدولة ، وقدموا خدمات كثيرة للحضارة الإسلامية باعتراف مؤرخ أوروبى كبير يحاول أن يقترب من الإنصاف ، وقد كتب ديورانت ما كتبه ضمن رصد شامل للحضارة الإنسانية ، وليس فى دراسة مستقلة متخصصة ، ومع ذلك جاء فى كلام (ول ديورانت) ــ كما رأينا ــ قدر كبير من الإنصاف ضمن منظومة (قصة الحضارة) ، وذلك على العكس من كتابات العلمانيين الذين لم يحسنوا قراءة تاريخ الإسلام ، بل أغلب الظن عندى أنهم أو بعضهم لم يقرأوه أصلاً !!

وقد اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التى أنشئت فى عصر الراشدين مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط وجامع المدينة وجامع صنعاء الكبير ، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة مثل جامع دمشق والجامع الأقصى ، وقبة الصخرة وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع عقبة بن نافع فى القيروان ، كما جددوا المسجد النبوى فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وزادوا فى جامع عمرو ابن العاص عدة مرات [1] وقد ازدهرت الحياة الفكرية فى العصر

---

(١) انظر (بتصرف) السيد عبد العزيز سالم تاريخ الدولة العربية ص ٤٣٦ ، وما بعدها ، طبع الإسكندرية ١٩٨٢م .

الأموى وشملت مجـالات العلـوم الدينيـة واللغويـة والاجتماعيـة والرياضيات والفلك والطبيعيات [1] . وكان من أهم العلوم الدينيـة ، القراءات ، والحديث الذى دوِّن فى عصرهم ، وعلم الكلام ، وعلـوم القرآن [2] .

ولما كان العهد الأموى عهد فتوحات وتفـاعل مـع الحضـارة المعاصرة ، فقد وقف الحكام وعلماء الأمة وقفة حضارية أصيلة فـى وجه الأفكار والعلوم والنظم واللغات الوافدة ، وقد نجحوا فى وضـع الضوابط والمناهج وأسس هذه العلوم التى تكفل التـأصيل الصحيـح والمواجهة الإيجابية والاستجابة المثلى للتحدى الفكرى .

وكما نشأت علوم اللغة لمواجهة اللحن ، فقد نشـأت المذاهـب الفقهية للاجتهاد فى الوقائع الجزئية التى تكـاثرت ، فظـهر الإمـام أبو حنيفة (٨٠ــ١٥٠هـ) والإمام مالك ولد سـنة(٩٣هـ) وقيـل (٩٥هـ) وتوفى (١٧٩هـ) ــ رضى الله عنهما ــ وكذلك نشأ علـم الحديث بفروعه الكثيرة والرائعة لمواجهة الوضع والوضاعين .

وكان القضاء قائماً على خير الوجوه الشرعية وأحكمـها ، فقـد جرى معاوية بجهده ــ وهو ومن حكموا بعده فى خطة القضاء علـى

(١) المرجع السابق ، ٤٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ٤٢٣ .

سنن من تقدمه [١] ، أى على سنن الراشدين .

وحقيقة أن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوحات لأسباب كثيرة ، منها أنّ الأمويين قد تركوا لها ما يكفيها من الأرض ، بل إنها كانت فى حاجة إلى جهد كبير لتحكم قبضتها على الأرض التى تحت أيديها ، وكانت الدولة العباسية بالتالى ــ تتجه إلى الداخل ، وترعى ــ فى حدود المتاح للحكم ــ العلوم والآداب ، وكان الشعب مشغولاً بصناعة الحضارة مطمئناً ، تهيأت له الفرص ، ونشر العباسيون الرخاء أمام الناس لستة قرون لم تَرَ قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم كما يقول (ول ديورانت) ، وقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون ازدهاراً جعل آسيا الغربية لخمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة [٢] .

ونال التعليم من العناية القِدْح المُعَلّى والحظ الأوفر ، ظهرت مراحله الأولية والثانوية والعالية ، وحدث أن وضعت الحكومة هذه " المدارس الثانوية " تحت إشرافها وتكفلت بالإنفاق عليها ؛ وكان التعليم بالمجان ، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم فى بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات ، وكان

---

(١) أبو الحسن بن عبد الله النباهى المالقى الأندلسى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢٤ طبع دار الآفاق ، بيروت الطبعة الخامسة / ١٤٠٣هـ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ١٣/١٥٠ .

الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإســـلامية ليقـابلوا عالمـاً كبـيراً أو مصلحاً مشهوراً ، وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانتـه في بلده أن يسافر إلى مكة ، أو بغـداد ، أو دمشـق ، أو القـاهرة ، ليستمع في واحدة منها أو أكثر من واحدة إلى كبار العلماء ، وكـان من الأسباب التي يسرت انتشار الأدب العربي فـي بـلاد الإسـلام المختلفة وجعلته أدباً دولياً واحداً أن لغة التعليم والأدب فـي جميـع البلاد الإسلامية ــ مهما اختلفت أجناس أهلها ــ هي اللغة العربيـة ، التي بلغت من سعة الانتشار ما لم تبلغه اللغة اليونانية (١) .

وقد ساعد على انتشار الأفكار العربية والإســلامية أيضـاً ، أن العرب كانوا قد عرفوا الورق ، وافتتحوا في بغداد أول مصنع للورق عام ٧٩٤م على يد الفضل بين يحيى وزير هارون الرشـيد ، ونقـل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ، وفي الفترة نفسـها وجـد الورق في مصر ، وبدأ ينتقل إلى معظم العالم الإسلامي ، وبـالطبع فقد يسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه .

وكانت معظم دروس الفقه والكلام في العصر العباسي تعطى في المسجد ، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس ، وكان يتخذ مكانه إلى جانب إسطوانة في المسجد مستنداً إليها بظهره إن أمكـن ،

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ١٣/١٥٠ .

وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء : دوروا وجوهكم إلى المجلس . وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرة من مجالس العلم ، لقد حقق المنصور للدولة العباسية استقراراً كبيراً فى النواحى المالية والإدارية والقضائية وبقية تنظيمات الجهاز الإدارى للدولة . واتبع المنصور أسلوب المركزية فى الحكم ، وقد ساعده على ذلك وجود نظام دقيق للمراقبة مكنه من معرفة ما يجرى فى الولايات عن طريق البريد : فقد كلف عمال البريد بمراقبة الولاة والكتابة إليه عن أعمالهم وعن الأسعار والأموال والقضاة ، واهتم المنصور باختيار ولاته وعماله فى جميع أجهزة الدولة من ذوى الأخلاق الفاضلة والديانة والأمانة . وخصص المنصور جزءاً كبيراً من وقته اليومى للنظر فى الكتب الواردة عليه من أنحاء الدولة .

كما اهتم بالشئون الحربية وتنظيم الجيش وأسند قيادة الجيش لشخصيات عربية ، كما أن معظم الجند كانوا من العرب . أما الوزارة فلم يكن لها نفوذ كبير فى عهده غير أنه جعلها نظاماً سياسياً لها مراسيمها الخاصة ، . وقد تميز القضاء فى عهده بالتنظيم ، وظهر المذهبان الفقهيان المالكى فى الحجاز والحنفى فى العراق [1].

---

(١) موضى الرميح : الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور وسياسته الداخلية والخارجية . رسالة ماجستير بكلية الآداب للبنات بالدمام ١٤٠٩هـ ، ص (٥ الخاتمة) .

أما الشرطة وهى تابعة للقضاء آنذاك فقد حــــرص المنصــور على متابعة أخبار أصحاب شرطته وإنزال العقوبة بمن تجاوز حــدود سلطته .

وكان المنصور أول من اهتم بالعلوم من خلفاء بنـــى العبـــاس ، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربيــة من كتب الفلك والرياضيات والطب والأدب . كما بــدأ فــى عــهده التدوين فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ وغيره ، ومن أشـــهرها كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وكتاب الســيرة النبويــة لابــن إسحاق .

وكان جامع المنصور ببغداد ، وهو أحدث مسجد جــامع بــها ، أشهر مركز للتعليم فى المملكة الإســلامية ، ويحكــى أن الخطيــب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وســأل الله ــ عز وجل ــ ثلاث حاجات أخذاً بقول النبىﷺ (ماء زمزم لما شــرب له) ، فالحاجة الأولى : أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية : أن يملــى الحديث بجامع المنصور ، والثالثة : أن يدفن إذا مات عند قبر بشــر الحافى [1] .

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ــ ترجمة دكتور عبد الـهادى أبو ريدة ٢٩٦/١ .

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣هـ ـ ٩٣٥م) وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى ، إلى إسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها ..

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، فقد كان أبو حامد بن حمد الاسفرايينى المتوفى عام (٤٠٦ هـ ـ ١٠١٥م) إمام أصحاب الشافعى ، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد ، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه .

وأما أبو الطيب الصعلوكى الفقيه الأديب مفتى نيسابور ، وهى مركز علماء خراسان ، فيقال إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم فى عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم (٣٨٧هـ ـ ٩٩٧م) . وكان يقعد بين يدى أحد أصحاب الجوينى (الإمام الفرد) (المتوفى عام ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م) كل يوم ثلاثمائة من الأئمة والطلبة [١] .

وكانت المكتبات العامة ، ومكتبات المساجد منتشرة يؤمها الدارسون ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وبلغت فهارس

---

(١) المرجع السابق ١/٢٩٧ .

كتب المكتبة العامة بالرى عشر مجلدات . ولما دمر المغـــول بغـــداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة [١].

ولقد استخدم المأمون جماعة من الفلكييـــن لـــيرصدوا الأجـــرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كشوف بطليمـــوس الفلكى ، ويدرسوا كلف الشمس ، واستخدموا كروية الأرض أساسًـــا بدأوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشـــمس مـــن تدمر وسنجار فى وقت واحد ، وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقديـــر الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل ، وهو تقدير يزيـــد بنصـــف ميل عن تقديرنا فى الوقت الحاضر [٢].

ومع أن عصر المأمون ــ كما ألمحنا ــ يتعرض لنقـــد شـــديد نظراً لاستبداد المعتزلة فيه ، وللوقوع فى الترجمـــة الوافـــدة التـــى أساءت إلى عناصر الأصالة وعدم وجود ترجمة مضادة من العربيـــة إلى اللغات الأخرى ..

---

(١) ول ديورانت ــ قصة الحضارة١٣/١٧٠ .

(٢) المكان السابق .

الأمة فى خدمة الشريعة (نموذج)

ومع هذا ، ومع وجود الإيجابيات التى قام بها جهاز الدولة ــ فإن الأمة المسلمة ــ كعادتها ــ لم تترك أمر الشريعة للحكومة وحدها ، بل جاهدت فى مجال نشر الإسلام الصحيح ، ومقاومة البدع الفكرية الوافدة ، واللصوص والمفسدين الذين انتهزوا فرصة الصراع على الحكم فى الدولة وعاثوا فى البلاد الفساد !! ويحدثنا التاريخ فى هذه الفترة عن حركة من هذه الحركات الإصلاحية الشعبية الرائعة.

فقد اشتهر أحمد بن نصر الخزاعى بأنه كان عالماً ومعلماً فى بغداد خصوصاً أيام المأمون حينما برزت الفتنة ، وبدأ المعتزلة ينشرون آراءهم القائلة بخلق القرآن ، فكان الخزاعى من أشهر من وقف فى هذه الأزمة ، وكان لأسرته مكانة خاصة لدى العباسيين نظراً لمكانة جده حيث كان أحد الفقهاء للدعوة العباسية ، وبالتالى فقد كان أحمد بن نصر من أهل الوجاهة والرياسة فى بغداد ، كما صرح بذلك ابن كثير [1] ، وقد كان ابتداء شهرته فى بغداد سنة ٢٠١هـ بعد قتل الأمين ببغداد سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) وبقيت بغداد مسرحاً للنهب وللسب ، حيث تأخر المأمون بخراسان ، واضطربت أحوال بغداد وكثر فيها اللصوص والدعارة وأهل الفساد فاجتمع حوله

---

(١) البداية والنهاية (حوادث سنة ٢٠٢هـ) .

جماعة من الناس بايعوه وأخذوا يأمرون بالمعروف وينـــهون عـــن المنكر ، وكان أتباعه يستمعون لأوامره ، وبالتالى ساعد على ضبــط الأمور فى شرق بغداد إلى أن قدم المأمون إلى بغداد سنة٢٠٤هـ[١]، فاختفى الخزاعى عندئذ وذكـــر المؤرخــون أن الخزاعـــى وســـهل ابن سلامة كانا يتعاونان على هذا الأمر [٢] ، وقد اســـتمرت دعـــوة الخزاعى ما بين (٢٠١ــ ٢٣١هـ) أى ثلاثة عقود .

ويصور الطبرى حركة الخزاعى الدعوية الإصلاحيـــة عندمـــا يؤرخ لسنة ٢٠١هـ فيقول : فى هذه السنة تجردت المتطوعة للنكـير على الفساق ببغداد .. وكان السبب فى ذلك فساق الحربية والشـــطار الذين كانوا ببغداد والكرخ فآذوا الناس أذى شديدا وأظـــهروا الفســق وقطع الطريق وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطـــرق .. فلمـــا رأى الناس ذلك وما قد أظهروا من الفساد فى الأرض والظلم والبغــى وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغير عليهم ، قام صلحاء كل ربـض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا إنما فى الدرب الفاســـق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم ، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هـــؤلاء الفســـاق ، وصـــاروا لا يفعلـــون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم .

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، (حوادث سنة ٢٠٤هـ) .

(٢) الطبرى : المكان السابق ، ابن كثير ، البداية والنهاية (حوادث سنة ٢٠٢هـ) .

وقد قام رجال من أهل بغداد بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة نبيهﷺ وتبايعوا على ذلك وأخذوا يشجعون الناس على التعاون والتكاتف لصد أولئك المفسدين ومنعهم من الاختباء ، وقد كانت هذه الحركة الشعبية عامة وشاملة دخل فيها الكثير من الناس ، وكانت منظمة بحيث يسجل فيها اسم من يريد التعاون معها ضد الفساق الذين كانوا يعيثون فساداً فى بغداد ، وقد تمكنت هذه الحركة بانتظام ودقة من العمل على منع اللصوص من العبث ببغداد وبأهلها ، وأوقفوا ما كان يدفعه الناس من أموال لهؤلاء المفسدين مقابل عدم الاعتداء عليهم .

ويدل على تنظيم هذا العمل ودقته ما ذكره الطبرى من أن رؤساء هذه الحركة قد جعلوا لها دواوين يسجل فيها اسم من بايع على العمل معهم [١] .

فلما انتهت الفتنة بين المأمون والأمين، وعادت للحكومة هيبتها ، وعاد لها سلطانها فقدت الحركة أهميتها ، فتركت الأمور لذويها .

---

(١) الطبرى : حوادث سنة ٢٠١ ، وما بعدها .

نماذج لخلفاء صالحين :

ولئن كنا قد عبرنا بعض الخلفاء العظمـــاء والمشـــهورين مـــن آل العباس ، من أمثال محمد المهدى ، وهارون الرشيد ، فما ذاك إلا أننا لا نريد تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين .. كما أننـــا أيضاً عمدنا إلى تجاوز العصور المزدهرة غالباً حتى لا يُحْتَجَّ علينـــا بأننا ركزنا على المشهورين الذين يمثلون ــ فى رأى المتحيزين ضد تاريخنا ــ الشذوذ .

ولهذا الالتزام فإننا لم نقف عند عمر بن عبـــد العزيـــز ونحـــن نتحدث عن بنى أمية ، وأيضاً فإننا لن نقف عنـــد محمـــد المعتصـــم العباسى (٨٣٣ــ٨٤٢م) صاحب عمورية العظيم ، ولن نقـــف عنـــد هارون الواثق ، أو جعفر المتوكل الذى قاوم حركة ظلم الاعـــتزال ، وأنهى الظلم الذى وقع على أهل السُنة .

وسوف نقفز لنقدم نموذجين من النصـــف الثـــانى مـــن القـــرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) استغرق حكمهما نحـــو ستين سنة .

وهذا القرن الخامس ــ كما هو معروف ــ من القـــرون التـــى تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية .

فى هذه الفترة كان الخليفة فى بغداد المقتدى بأمر الله العباسى الذى حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ـ٤٨٧هـ) واحداً من خليفتين حكما فى النصف الثانى من القرن الخامس .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدى كان يتمتع بأخلاق طيبة ، وأن من صفاته حبه للدين والخير ، وكانت نفسه قوية ، وهمته عالية ، وذا شجاعة وشهامة ، وكل أيامه خير وبركة ، حسن السيرة والسريرة [١]، ويصفه ابن كثير ـ أيضاً ـ بأن شمائله عالية ، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى ولين الجانب وكثرة العلم [٢] .

وكان المقتدى حريصاً على أخلاق الناس ودينهم ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور ، وخَرَّبَ الخمارات ودور الزوانى والمغانى [٣] وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه [٤] . وكان يهتم بنظافة بغداد ، وأقدم على اتخاذ قرار

---

(١) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، ١٢٦ ، طبعة بيروت .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٦/١٢ دار صادر بيروت .

(٣) محمد حسين شندب : الحضارة الإسلامية فى بغداد ، ص ١٦ ، دار النفائس بيروت ط١ /١٤٠٤هـ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١١١/١٢ .

بتأمين الحاجات الضرورية للناس وعلى رأسها المسكن فأمر بشـــراء بيت لكل فقير يسكن فى كوخ ، وقد راقب المقتـــدى حركـــة البيـــع والشراء ومنع التلاعب بالموازين والأسعار [١] .

وكانت المدارس الفقهية هى الظاهرة اللافتة للنظر لأنها تعكـــس تطور الحركة الفقهية وعلم الحديث والتفسير والآداب واللغة ؛ لأنـــها جميعاً كانت مواد التدريس التى يتلقاها طلاب هذه المدارس ، وكـــان انتشار المدارس بمدينة بغداد فى عصر السلاجقة هو الحدث الأكـــبر والأهم الذى حققته الحضارة الإسلامية ، وتعتبر بحق قفزة كبيرة فـــى سلم التطور العلمى بعد أن كان التدريس محصـــوراً فـــى المســـاجد وبعض الكتاتيب .

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهيـــة ولتغذيـــة أجـــهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة [٢] .

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلـــة رفيعـــة فـــى المجتمـــع الإسلامى بمدينة بغداد فى أيام المقتدى بالله العباسى ، وساهموا فـــى

---

(١) محمد شندب : الحضارة الإسلامية فى بغداد ، ص١٨ .

(٢) محمد حسين شندب ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

معظم الأحداث التى شهدتها المدينة وازدهرت فـــى هــذه المرحلـــة مذاهب الفقه السنية الثلاثة : مذهب الإمام أحمد بن حنبـــل ومذهـــب الإمام الشافعى ومذهب الإمام أبى حنيفة [١] .

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدى فقد حكـــم بيـــن سنتى (٤٧٠هــ ــ ٥١٢هــ) ويصفه المؤرخون بأنه لين الجـــانب ، كريم الأخلاق ، يحبّ اصطناع الناس ، ويفعل الخير ، ويسارع إلـــى أعمال البرّ والمثوبات [٢] وكان مؤثراً للإحسان ، حافظـــاً للقـــرآن ، محباً للعلم ، منكراً للظلم ، وكان مشكور المساعى لا يرد مكرمـــة تطلب منه ، وكان كثير الوثوق بمن يوليه ، غير مصغ إلى ســـعاية ساع ، ولا ملتفت إلى قوله ، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عـــزم ، بأقوال أصحاب الأغراض [٣] .

وكان جميل السيرة متصفاً بالعدل والإنصاف ناهياً عن قصـــد الجور والاعتساف ، سمحاً جواداً ، هيناً لينـــاً ، حســن المعشـــر ،

---

(١) محمد حسين شندب ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) عز الدين أبو الحسن بن الأثير : الكامل ، ص ٥٣٥ ، طبعة دار صادر ، بـيروت . وانظر محمد حسين شندب ، المرجع السابق ٨٥ ، ٨٦ .
(٣) ابن الأثير ، المكان السابق ص ٥٣٥ ، والمرجع السابق ١٨٧ .

قد حسن الله خلقه وخلقه وبره وأدبه ، وجهه أبيض مشرب حمـــرة ، تام الطول لطيف المحاسن ، نقش خاتمه " ثقتى بالله وحـــده " يحـب العلماء والصلحاء ، كبير الهمة ، سهل العريكة . وكانت أيامه أيـــام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد ، وكان حسن الحـــظ ، جيّـد التوقيعات [1] .

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية فى عهد المسـتظهر ، بالصلح ، والمودة ، والاحترام ، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمـــة التى اتبعها الخليفة فى معاملة عامة الناس .

ويعدّ عهد المستظهر من أزهى العهود التى عرفها أهـل الذمـــة ببغداد لأن المستظهر حرص علـــى معاملتـــهم بالحسـنى ، وقـــرب زعماءهم .

(١) ابن الأثير : ٥٣٦/١٠ ، وانظر ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الأمـــم والملـــوك ٢٩٤/٨ حيدر أباد ــ الهند ، سنة ١٣٥٨هـ .

نموذج لدور المرأة الحضارى

كما تمكنت المرأة البغدادية أن تبرع فى حقول عديـــدة سياســـية وشرعية ، ودينية وعملية ، وفى مجالات البر والإحسان ، وحــرص المستظهر على تطوير العمران والاقتصاد وقـــد ســاعده فـــى هــذا الأمر ، حالة الاستقرار والهدوء التى رافقت حكم الســـلطان محمــد ابن ملكشاه .

وفى العصر العباسى لم تكن المرأة المسلمة بعيدة عـــن مجـــال صناعة الحضارة الإسلامية ، بل كانت المرأة ركناً أساسياً من ركنـــى الحضارة الفاعلة ، وكان لها وجود فاعل فى داخـــل البيـــت حيـــث تشرف على صناعة الإنسان وتحويله إلى إيجابى مؤمن مؤثر ، كمـــا كان لها وجود ــ أيضاً ــ فى المســـجد والتعليـــم والفكـــر والثقافـــة والجهاد ، فى الإطار الذى حددته شـــريعة الله وثمـــة كتـــب كثـــيرة رصدت (أعلام النساء) ودور المرأة الحضارى . ونكتفى بنمـــوذج نقدمه من حياة ابن عساكر (٤٩٩ــ٥٧١هــ) نفسه ، ومـــن إطلالـــة عابرة على الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه (تاريخ مدينـــة دمشق) .

كان بيت الحافظ أبى القاسم علــى المعــروف بــابن عســاكر معموراً بالعلم ، كل من فيه بين حافظ ومحـــدث ، لقــد اســتطاعت شخصيته القوية ، وروحه السمحة أن تفعل فى نفوس أبنائه وزوجـــه فعل السحر ، كان ابن القاسم بن على الحسن جمال الإســلام حافظــاً سار على خطوات أبيه وأتم عمله فـــى التــاريخ وبيضـــه وســمعه على أبيه ، وكانت زوجه وأم أبنائه عائشة بنت على بـــن الخضــر أم عبد الله السلمية تهتم بالحديث وتسمعه من شيخات يحضرهن لـــها زوجها ، ثم يسمع أبناؤها منها كما يســـمعون مــن والدهــم . أمــا أبو الفتح الحسن بن على فقد سمع على والده الحـــافظ أبـــى القاســم وعمه الفقيه الصائن [1] .

أما خارج البيت فقد كان لابن عساكر شيخات تعلم على أيديـــهن ذكر منهن فى كتابه أمة العزيز (شكر بنت أبى الفرج) ، وخجســـته بنت أبى الوفاء عمر ، أم البهاء ، وشهدة بنت أحمـــد بـــن الفـــرج ، وضوء بنت حمد بن محمد الطويل . أم الكرام ، وفاطمة بنت علـــى ابن الحسين بن جدا أم أبيها العبكرية وفاطمة بنت محمد بـــن أحمـــد أم البهاء بنت البغدادى ، وملكة بنت داود بن محمد ســـعيد القرطقـــى

---

(١) الحافظ أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر : تـــاريخ مدينـــة دمشق ، قسم تراجم النساء بتحقيق سكينة الشهابى ، ص ١٦ .

العالمة الصوفية ، ونورسى بنت أبى الوفا عبيد الله بن محمود أم النجم) [1] .

ونحن نتوقع ــ بالطبع ــ أن هذه التلمذة على هؤلاء الشيخات كانت فى إطار الشريعة ، وكانت إما فى الصغر ، وإما فى إطار المسجد ، أو التلقى غير المباشر ، ويكفى أن نرصد هذا الحشد الكبير الذى دونه ابن عساكر فى تراجمه للنساء لنعلم كم كان دور المرأة فاعلاً فى العصور التى يصفها بعضهم بالجمود .. ففى حرف الألف فقط أورد ابن عساكر هذه الأسماء :

أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية " ابنة خالة المصنف " ، وأسماء بنت واثلة بن الأسقع الليثية ، وأسماء ــ ويقال : فكيهة ــ بنت يزيد بن السكن بن رافع بن أمرئ القيس الأشهلية ، أسماء امرأة كانت فى عصر أم الدرداء ، آمنة ويقال : أمة ــ بنت سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، آمنة بنت الشريد . زوج عمرو بن الحمق ، آمنة ــ ويقال : أمينة ــ بنت عمر بن عبد العزيز ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص ، آمنة ــ أو أمية ــ بنت أبى الشعثاء الفزارية ، آمنة بنت محمد بن أحمد ، أم اليمن العجلية ، آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية " ابنة

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

خالة المصنف " ، آمنة ذات الذنب ، أمة العزيز بنت سهل الاسفراييني ، أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية ، أميمة بنت أبى بشر بن زيد بن الأطول ــ ويقال : زيد الأطول ــ أميمة بنت رقيقة ــ وهى أميمة بنت عبد . ويقال عبد الله بن بجاد بن عمير [1].

ولنا أن نقيس على حرف الألف بقية الحروف ، ويكفى أن نعلم أن هذا الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه الموسوعى (تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حَلّ بها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها) يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير ، كما يجب أن نتذكر أيضاً أن هذا الكتاب يرصد حركة الحضارة فى مدينة واحدة هى مدينة دمشق ، وأنه لا يرصد إلا الأماثل البارزين الذين استطاع ابن عساكر أن يصل إليهن ــ ولنا بل يجب علينا ــ أن نضع عند تقويمنا ، النساء اللائى كن فى بغداد التى كانت تتصدر الحواضر الإسلامية فى العصر العباسى .

ولنا ــ بل يجب علينا ــ أن نضع الأندلس بقرونها الثمانية عند التقويم أيضاً ..

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٩٣ . ويلاحظ أنهن من عصور مختلفة ، تبدأ من العصور الأولى للإسلام .

ولنتذكر كذلك الأدوار الحضارية التـــى تعاورتـــها العواصـــم والحواضر الإسلامية الكبرى على امتداد العالم الإسلامى : المدينـــة ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، وبجاية ، ودهلى وغيرها .

وكانت المرأة العابدة والعالمة ، والمربية والمجاهدة موجودة هنـــا وهناك .. تتحرك فى إطار الشريعة ، وقد تخطئ ــ وفق ســـنن الله البشرية ــ كما يخطئ الرجال .. لكنها كانت وستبقى أشرف امـــرأة عرفها تاريخ البشرية .. إنها تموت ولا تبيع دينها أو تأكل بثدييها فى الأعم الأغلب !!

متى نكف عن ظلم تاريخنا ؟!!

وهكذا .. من خلال هذه الومضات من تاريخ المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين ، وهى الومضات التى تشكل مجرد نماذج (غير منتقاة) والتى تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء للجوانب الأخرى التى تتصل بالتفاعل الحضارى القائم على شريعة الإسلام فى الخلافتين العظيمتين الأموية والعباسية .. هكذا نكتشف الحجم الحقيقى للظلم الواقع على تاريخنا ، كما نكتشف حجم المؤامرة التى يتعرض لها عن طريق بعض المحسوبين عليه ، وعن طريق هؤلاء الذين يطلقون أحكاماً عامة جزئية سرعان ما تسقط عند البحث العميق .

وقد اكتشفنا من خلال النماذج المقدمة كيف كان التفاعل إيجابياً ، وقوياً من قبل كثير من الحكام ومن قبل الشعب المسلم الذى كان الحارس الأمين على شريعة الإسلام وحضارته .

وقد كان هناك تفاعل من نوع آخر لم نقف عنده كثيراً مع أنه انبثق عن التصور الإسلامى أيضاً وإن كان يتصل ببعض الوسائل والتقنيات ، وعلى سبيل المثال فقد انتشرت البيمارستانات ، وكانت أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب ؛ لكنها كانت محكومة بالشريعة

أيضاً . فلم تكن الشريعة تجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ، ونال إجازة من الدولة .

كذلك كان الصيادلة ، والأطباء ، والمجبِّرون يخضعون لأنظمة شرعية تضعها الدولة للتفتيش عن أعمالهم ، وكان فى بغداد وحدها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً .

وكان انتظام مالية الخلفاء سبباً فى القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير كتعبيد الطرق ، وإنشاء الفنادق ، والمساجد ، والمشافى ، والمدارس فى جميع نواحى الدولة ، ولاسيما فى بغداد والبصرة والموصل (..) واتسع نطاق الزراعة ووسعت دائرة التعليم العام [1] .

وفى هذه القرون الأربعة (الثانى ، والثالث ، والرابع ، والخامس للهجرة) بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية ، ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة [2] .

وفى ذلك كانت الدوافع شرعية فى الأغلب الأعم ، لأن الإسلام دين ودنيا ، وعبادة وعمل ، كما أن ذلك كان محكوماً بالضوابط

---

(١) ول ديورانت : مرجع سابق ، ١٣/١٧٠ ، وما بعدها .

(٢) الموضع السابق .

الشرعية ، إلا ما كان فى دائرة الشذوذ .. ذلك لأننا لا نستطيع أن نقول .. إن بنى العباس لم يخطئوا ، ولكنا نقول إن ذلك يجب أن يقاس فى إطار ظروفه التاريخية ، وأن يتحرى فيه وجه الحق [١] وأن يكون موضوع التحليل عادلاً وموضوعياً .

إن (ديورانت) ـــ مع كل ما أورده عن الدولة العباسية إيجاباً وسلباً ـــ لم يملك إلا أن يقول : " إنها كانت أقوى حضارة علمية إلى نهاية العصر العباسى ، وبعده بستة قرون [٣] .

(١) د . محمد رشاد خليل ـــ المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ ط ١٩٨٤م ، القاهرة ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ول ديورانت : المكان السابق .

الحياة الإسلامية فى المغرب وإفريقية

مع قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ انفصلت عن دولة الخلافة الكبرى ـ من الناحية السياسية ـ بعض الأقاليم ، ولاسيما البعيدة منها .. وكان المغرب العربى وإفريقية الإسلامية والأندلس أبرز المناطق التى انفصلت .. ولم ينظر قط إلى هذه الدول إلا على أنها دول مستقلة عسكرياً وسياسياً ، أما العقيدة والشريعة والقيم فواحدة .. وكانت كلها تنتسب إلى الإسلام وتحمل رايته ، وقد كان الأغالبة (١٨٤هـ ـ ٢٩٦هـ) يرتبطون بالخلافة العباسية ويحكمون باسمها، وعاصمتهم القيروان أصبحت من أشهر العواصم الإسلامية نشراً للثقافة الإسلامية ، وعن طريق قوتهم البحرية الهائلة قاموا بغزو مالطة والسواحل الإيطالية الجنوبية ، وقد نجحوا فى عهد زيادة الله الأغلبى فى الاستيلاء على صقلية بقيادة القائد الفقيه القاضى أسد ابن الفرات (٢١٢هـ) [١] .

أما الأدارسة فقد استقلوا فى المغرب الأقصى ، وكانت عاصمتهم (فاس) ، وقد حكموا نحو قرنين من الزمان (١٧٢ـ٣٦٣هـ) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ١٠٢/١ بتحقيق كولان وبروفنسال ، بيروت .

وفى المغرب الأوسط (الجزائر) قامت دولة بنى رستم على يــد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذى كان مولى لعثمــان بــن عفــان رضى الله عنه ، وهو منشئ مدينة تاهرت (العاصمة) وكــان يــأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشارك النــاس فــى أعمــال البنــاء للمساجد ولبيوتهم بيده .. ومع أنه كان خارجى المذهب إلا أنه كــان ــ ودولته ــ ملتزماً بالشريعة فى حدود المذهب الإبــاضى .. وقــد عاشت الدولة أكثر من قرن ونصــف (١٤٤ــ٢٩٦هــ) [١] حتــى قضى عليها الشيعة الفاطميون . وقد ازدهر المغرب الأوســط علــى عهد الرستميين ، وأصبحت تاهرت مدينــة علميــة وثقافيــة حافلــة بالأجناس من شتى أنحاء العالم الإسلامى [٢] ، وكانت الدولــة علــى علاقة طيبة بالأمويين فى الأندلس ، وقد عملوا على نشر الإسلام فــى داخل إفريقية [٣] .

وكانت دولة بنى مدرار (واسول) فى سجلماسة تشبه أن تكــون جناحاً خارجياً لبنى رستم ، وكانت مثلها فــى الاعتــدال والالــتزام بالإسلام ، وكانت عاصمتها سجلماسة [٤] وعاشت أكثر مــن قرنيــن

---

(١) المصدر السابق ١/١٩٦ .

(٢) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٨٨ طبع الإسكندرية .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ١/١٥٦ .

(١٤٠ - ٣٤٩هـ) وكانوا لا يبيحون دم مسلم إلا بحقه ، ولا يميلون إلى تكفير أحد من المسلمين [١] ، وقد تعاونوا مع بنى رستم فى أمور كثيرة ، نافعة حتى قضى عليهم الشيعة !!

فهكذا ارتبطت هذه الدول بالإسلام وشريعته وحضارته وجاهدت فى سبيله على الرغم من استقلالها السياسى .

المرابطون فى المغرب : نموذج رائع للإخلاص للإسلام :

أما المرابطون الصنهاجيون (٤٣٠ - ٥٤٠ هـ) فدولتهم - بحق - إحدى أعظم الدول الإسلامية فى إفريقية والمغرب العربى . وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة على كتاب الله وسنة رسوله والجهاد فى سبيل إقامة مجتمع إسلامى ونشر الإسلام فى إفريقية . وقد وضعوا نصب أعينهم تربية الشعب على أسس إسلامية جادة ، والتقدم به للقضاء على الوثنيات فى إفريقية وحركات المرتدين وأدعياء النبوة فى قبائل غمارة وبرغواطة . وكان ابن ياسين يلقب بمحيى السنة وقامع البدع والأضاليل .

وقد أحدث (عبد الله بن ياسين) هزة فى حياة العامة فى هذه المنطقة ، فغير بعض العادات ، وأحيا الروح الدينية ، وأقام حدود

---

(١) أحمد مختار العبادى : مرجع سابق ١٨٨ و ١٨٩ .

الإسلام ، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس [١] .

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج ، ومنهم يحيى بن إبراهيم ، ويحيى بن عمر ، وأبو بكر بن عمر اللمتونى ، ويوسف ابن تاشفين ، وغيرهم . وقد علَّموا الناس فى الأربطةِ الدينَ والعمل ؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم فى الحصول على كل ما يحتاجون إليه عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر ، والبحر ، كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسهم ، مع الاكتفاء فى الطعام بأقل القليل ، وبالخشن من الثياب ؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة ، خشنة ، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة . وآلوا على أنفسهم الإخلاص ، والتوبة ، والتعبد [٢] . وقد تمخضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقيا التى كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام ، فى حركة المرابطين الأولى ، فى أيام الشيخ عبد الله بن ياسين . فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين ، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف ، والفولبى ،

---

(١) د / عصمت عبد اللطيف دندش : دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا ــ ص ٦٦ ط ، دار الغرب ١٩٨٨م وانظر : إبراهيم الجمل : الإمام عبد الله ابن ياسين ص ٦١ ، دار الإصلاح بالدمام .

(٢) د / عصمت عبد اللطيف دندش : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

والماندنجو ، ونشروا المدارس الإسلامية فى السودان الغربى فاستوعبت هذه القبائل الإسلام . وأخذوا من حضارة المغرب ، وتأثروا بالشريعة الإسلامية ، واستعانوا بالدعاة من المرابطين فى بلاطهم ، لتعليمهم الشريعة والقراءة ، والكتابة ، حتى إنهم قلدوهم فى ملابسهم . وفى موجة اندفاع المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين ، وجهودهم فى نشر الإسلام فى منتصف القرن الحادى عشر (السادس الهجرى) اعتنق حكام ولاية كانجابا (من الماندنجو) الإسلام وأخذوا يتوسعون ، ويمدون نفوذهم إلى الجنوب ، وإلى الجنوب الشرقى ، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضى إمبراطورية مالى .

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام فى اتجاه ديارا ، وغلم ، ومسينا ، واتجهوا خاصة إلى ديا ، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات ، وهناك أنشأوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود ، ومن هناك انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو ، والكونج [١] وهى مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية والرباط فى سبيل الله .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٦–١٤٧ ، وكل هذه القبائل فى السودان الغربى (غرب أفريقيا) ، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر والأماكن المطلة عليه وأقاموا كيانات سياسية .

دور الموحدين الحضارى :

وأما الموحدون فقد حملوا الراية فى المغــرب والأندلــس بعــد المرابطين [1] واستمروا فى عملهم لأكثر من قرن (٥٤٠ـ٦٥٠هـــ) وما فتئوا يحملون شعلة الإسلام ، ويوحدون الأمة . وكـــان الخليفــة عبد المؤمن بن على فقيهاً ومحدثاً وأصولياً [٢] .

ولا ينكر باحث أن ثمة أخطاء وقعت فيها الدولـــة الموحديـــة ، على أن تلك الأخطاء التى تقرؤها فى سطور الدولة الموحدية الأولــى قد اقتصرت على حياة المهدى بن تومرت تقريباً ، وكما يخرج النــــور أحياناً من التراكمات المظلمة وكما تنبثق الشمس من بين الســحب .. كذلك وقع فى مسيرة الدولة الموحدية فما إن مات المهدى بن تومرت سنة ٥٢٤هـــ حتى بدأت موازين دولة الموحدين تعتـــدل علـــى يــد (عبدالمؤمن بن على) الذى خلف محمد بن تومــــرت ومـــات ســـنة ٥٥٨هـــ .. ثم ابنه يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠هـــ فابنــــه يعقـــوب المنصـــور (ت ٥٩٥هـــ) بطـــل معركـــة (الأرك) التـــى وطـــدت لدولة الإسلام فى الأندلس نحو ربع قرن من الزمــــان ثـــم النـــاصر (ت ٦١٠هـــ) [٣] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب : ٧/٤ وما بعدها .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب / الجزء الأول / نشر مكتبة السلام بالدار البيضـــاء ص ١١٤ .

(٣) ابن عذارى : مرجع سابق ٤ ص ١٢٧ وما بعدها (بتصرف) .

ولهذه الدولة الموحدية الفضل فى الوحدة التى انتظمت المغرب والأندلس ، كما أن لها اليد الطولى فى عودة تونس إلى حظيرة الإسلام بعد أن استولى عليها النصارى النورمان المتعصبون .

وقد اشتهر عن الدولة الموحدية ، وبخاصة فى عهد أمرائها الأقوياء ازدهارها الاقتصادى الذى تمثل فى أربعة مظاهر أساسية :

أولاً : كثرة المصانع سواء فى المغرب أم الأندلس .
ثانياً : التبادل التجارى مع مختلف أقاليم حوض البحر المتوسط حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق فى بعض مدن فرنسا وإيطاليا كمرسيليا وجنوة والبندقية .
ثالثاً : العملة الموحدية القوية .
رابعاً : الأسطول التجارى البحرى الذى كانت تفرزه صناعة السفن [١] .

وفى المجال العقدى أو الفكرى وقف الموحدون فى وجه السيطرة الكاملة التى تمتع بها فقهاء المذهب المالكى والذين كادوا يغلقون أبواب الاجتهاد ، فلما جاء الموحدون دعوا إلى الاجتهاد وشجعوا الرجوع إلى الكتاب والسُّنة وازدهرت فى عهدهم دراسة

---

(١) دكتور / أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ١٥٣/٤ وما بعدها طبع دار النهضة العربية ، مصر .

١

علمى الكلام والأصول . وكان من نتيجة ذلك أن لأنَ فقهاء المالكيــة وتركوا التعصب المذهبى الأعمى ومالوا إلـــى النظــر فــى كتــب الأصول .

الحياة الدينية والتربية والتعليم
فى المغرب العربى (الإسلامى)

وفى المغرب الإسلامى كله بصورة عامة منذ الفتـــح وحتـــى سقوط دولة الموحدين ، كان المسجد يقوم بدور تعليمى كبير ، بحيـث إنه لم يكن ثمة مسجد فى مدينة خالياً من المدرسين (١) وقـــد أطلــق عليه فى المغرب العربى اسم (المسيد) وكثيراً ما كان هذا (المسـيد) علماً على " ملحق " يلتصق بالمسجد .. ويفرد للناحية التعليمية .

وقد تطور هذا " المسيد " فى القرن الخامس الهجرى ، فاســتقل بنفسه عن المسجد ، وصار كياناً بذاته من حيث البناء والـــهدف (٢) ، لكن هذا التطور لم يمنع المسجد من أن يكون محل تعلـــم ، إلا أنـــه ارتفع طبقة فصار بمثابة دار " للتعليم الثانوى " أو " للتعليم العالى " . إلى جانب " المسيد " و " المسجد " وجدت " الزاويـــة " فقـد كـانت الزوايا كثيرة جداً .

---

(١) توفيق المدنى : هذه هى الجزائر / ٨١ ، كتالوج بجاية /٥٨ .

(٢) الكعاك : مراكز الثقافة/٧١ ، ٧٢ طبع تونس .

وكانت الكتاتيب مكاناً لأشهر أنواع التعليم الابتدائـــى ، ويبـــدو أنـــها كانت قريبة ــ فى تخصصها ــ من عمل " المسيد " وإن كانت تتميز بملكيتها الخاصة .

ويبدو أن ما عرف فى بلدان المغرب العربى باســم "الشــريعة" كان يقوم أحياناً مكان "الكتاب" ، وهى "خيمة مدرسية عند البـــدو" (١) إلى جانب كونه مصلى تقام فيه " الأعياد " وربما صلوات الجمـــع ، ومن المحتمل أن " الشريعة " كانت محل تعليــم البــدو فــى مقــابل " المسيد " الذى كان محل تعليم الحضرى ، وهى تنتقل بانتقال الحــى وفق ضرورة الانتجاع ، أو دواعى تزاحم القبـــائل ، ويتعلــم فيــها الصغار من الجنسين (الأحداث) ، وفى المدن المغربية الكبرى كـــان يوجد لون من التعليم العالى (الجامعى) ، وعلى سبيل المثـــال فقــد أنشأ الناصر بن علناس المتوفى سنة ٤٨١هــ فى بجاية (الجزائريــة) معهد " سيدى التواتى " الذى يحتوى على ثلاثة آلاف طالب وتـــدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية ، ولقد ازدهرت الحياة العلميــــة فى المغرب العربى ازدهاراً كبيراً تدلنا عليه هذه المكانة التى احتلتـــها عواصم المغرب الحضارية آنذاك " كفاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس " وغيرها ، وقد برز فى هذه العواصــــم العلمـــاء والفقـــهاء

---

(١) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلـــس /٨٩ ، (حاشــية) طبــع نهضـــة مصر .

والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة .

ولقد لقيت علوم القرآن والسنة ، من تفسير وحديث وقراءات وفقه ، اهتمام الدول المغربية وجمهرة المسلمين .

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقاً لمدرسة الحديث التى كان إمامها " مالك " إمام أهل الحديث بالمدينة ، وكانت كتب المالكية الشهيرة كموطأ الإمام مالك ، والتلقين لعبد الوهاب البغدادى ، والواضحة لابن حبيب (١٦٣هـ/٧٧٩م) والعتيبة للعتبى [١] و " الأسدية " التى جمعها أسد ابن الفرات (٢١٣هـ/٨٢٨م) [٢] أثناء تلمذته على " عبد الرحمن بن القاسم " (ت ١٩١هـ/٨٠٦م) إمام المالكية بمصر ، " والمدونة " أو " المختلطة " التى جمعها فى فقه المالكية أبو سعيد عبد السلام ابن سعيد الملقب بسحنون والمتوفى سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م) ، على رأس الكتب التى تجد من المغاربة أكبر اهتمام .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ١٠٢٢/٣ ، بتحقيق على عبد الواحد وافى ، طبع مصر .
(٢) الحلة السيراء ، ٣٨١/٢ ، بتحقيق حسين مؤنس ، طبع مصر .

الحياة الدينية والعلمية فى أفريقيا السوداء :

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقى ودخلنا إلى إفريقيا السوداء فسوف نجد جهوداً شعبية إسلامية ناجحة تكررت فى الأمكنة والأزمنة المختلفة .. وحسبنا هنا فى عملية التحليل التى نقوم بها لدحض الآراء العمومية غير العلمية أن نرصد بعض المحاولات البارزة التى نجح أصحابها فى نشر كلمة الله وتطبيق الشريعة الإسلامية ، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال .

لقد شهدت بلاد الهوسا فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (١٥ للميلاد) تحولات خطيرة وحركة إصلاحية عظيمة ، قادها بعض السلاطين كسلطان (كانو) محمد رمفا ، وسلطان (كتسينا) محمد كورو ، وسلطان (زاريا) محمد رابو ، الذين اعتنوا اعتناء كبيراً بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الثوب الإسلامى على النظم السياسية . بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم وتشجيع العلماء لنشر العلم فى بقاع البلاد المختلفة ، ونخص فى هذا المجال السلطان محمد رمفا الذى وضع اللبنة الأساسية للبنية السياسية والاجتماعية والشرعية للدولة ، والذى غير من ملامح الدولة شبه الوثنية ، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية فى سلطنته [١] .

---

(١) أحمد محمد كانى ، الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقيا ، ٣٥ ، ط١ ، الزهراء للإعلام العربى ١٤٠٧هـ ، مصر .

ولقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقى لبلاد السودان الأوسط والغربى وخاصة أغذر وكاتسينا وكانو وستفى .. وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى التواتى .

وتذكر بعض المصادر أن المغيلى أنشأ مدرسة إسلامية فى كاتسينا ، وجلس يعلم الناس شئون دينهم .. وأثمرت مجهودات محمد ابن عبد الكريم المغيلى فى تخريج عدد كبير من العلماء ، وتأسيس مدارس علمية كثيرة [١] .

وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودى) النيجيرى (١١٦٦هـ ـ١٢٣٣هـ) (١٧٥٢ـ١٨١٧م) ، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التى لحقت به .

وكان الشيخ (عثمان بن فودى) فى بداية دعوته يحدث الناس فى خمسة أمور رئيسية : **أولها** : ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة . **وثانيها** : ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات . **وثالثها** : فى رد الأوهام والآراء الخاطئة فى أذهان الطلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة

---

(١) المرجع السابق .

الناس بلا مبرر شرعى . **ورابعها :** فيـدور حـول إخمـاد البـدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى دين الإسلام ورد العوائـد المخالفـة للشرع .

ويختص **الأمر الخامس :** بتعليـم العلـوم الشـرعية وتبسـيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام .

وعندما تكاثر أتباعه ، وهاجر إليه الناس مـن أقـاصى البـلاد مستمعين لوعظه ومقتدين بسلوكه ، حسده علماء زمانه ، وأظهروا له العداوة والبغضاء ووشوا به لدى الحكام لتعطيـل مسـار دعوتـه .. وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ عثمان بن فودى بكيدهم ، ومضـى يحاربهم باللسان والقلم داحضاً افتراءاتهم ومبلغـاً رسـالته بصـدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم .

ولقد استطاع الشيخ عثمان بن فودى بعد فترة وجيزة مـن قيـام دعوته تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة) ، وكان قوامُـها تلاميـذ الشيخ نفسه ، الذين تلقوا العلم على يديه ، والذين صقلـهم فكريـاً ، وهيأهم ذهنياً وعلمياً للقيام بمسئولياتهم فى التربية والدعوة إلى ديـن الله [(١)] .

---

(١) أحمد محمد كانى ، الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقية ، ٧٢ ، ٧٣ .

وفى سبتمبر ١٧٨٨ استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده ، وكان من بينهم الشيخ عثمان بن فودى للاجتماع به فى مناسبة عيد الأضحى ، ولما اجتمعوا به فى مكان يسمى (مغمى) حاول سلطان غوبر إرضاء الشيخ عثمان بن فودى بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له .. لكن الشيخ عثمان بن فودى على غير عادة العلماء الآخرين ، الذين كانوا معه ، رفض تلك الهدية ، وطالب بدلاً منها بخمسة أشياء :

١ ــ أن يسمح له بالحرية فى التجول فى البلاد للدعوة فى سبيل الله.

٢ ــ ألا يعترض سبيل أى شخص يريد الاستجابة لدعوة الشيخ .

٣ ــ أن يوقر كل عالم يلبس العمامة .

٤ ــ أن يطلق سراح المسجونين " السياسيين " .

٥ ــ ألا تفرض ضرائب باهظة على الرعية [١] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلطان غوبر " باو " قد قبل هذه " الشروط " مرغماً ، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ عثمان بن فودى ، واعتبر أول انتصار سياسى على حكام بلاد الهوسا .

وهكذا قدم الشيخ عثمان بن فودى تجربة لحركة إسلامية شعبية إصلاحية رائعة .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

المجتمع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى

من المعروف لدى الدارسين المتخصصين أن كل عصر يقـــاس بمدى مواجهته للتحديات التى تفرض عليه من خارجـــه أو داخلـــه ، ووفقاً لنوع هذه التحديات يتحدد المسار التـــاريخى والعطـــاء اللـــذان يكيفان المجتمع تكييفاً خاصاً ..

وفى ضوء هذه الحقيقة فإننـــا لا نتوقـــع أن يكـــون المجتمـــع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى شبيها بالعصرين الأمـــوى والعباسى كل الشبه ، بل لابـــد ـــ مـــع وجـــود الأرضيـــة العقديـــة والحضارية المشتركة ـــ من وجود خلاف ، ينطلق من عصر جديـــد له ظروفه وتحدياته الجديدة ..

لقد كان المجتمع الإسلامى فى عصر الأمويين والعباسيين يعيش ظروف تفوق حضارى ، وثقة مطلقة فى الذات المســـلمة ، وتفـــاعل فكرى وحضارى ينطلق من الداخل مع العالم كله ، ويسعى ـــ وقـــد نجح فعلاً فى سعيه ـــ إلى أن يكون الحضارة الأعلى والكبرى فـــى العالم كله لعدة قرون ، بصرف النظرعن وجود أزمات أو مشكلات .

أما فى العصرين المملوكى والتركى فقد كان الغرب قـــد اتخـــذ زمام المبادرة بعد سبعة قرون من الانحدار ، وهو إذ كـــان معطـــلاً

عقدياً وحضارياً ولا يملك ما يصدره للعــالم الإســلامى فــى هــذا المستوى _ فقد عمد إلى الغزو العسكرى الجماعى الــذى يشــبه أن يكون غزو البرابرة الهمج ــ فى لحظات شعور المــوت ــ للعــالم المتحضر الأرقى فكرًا وحضارة !!

ولو تعمقنا فى الحالة الحضارية التــى كــانت عليــها جيــوش الصليبيين التى قاتلت المسلمين مماليك أو أتراك فسوف نجدها ــ فــى الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق ــ أقل بقرون كثيرة مــن المســتوى الإسلامى العام !!

وقد فرض هذا التحدى العسكرى الصليبى ، والوثنى أحيانًا علــى يد التتار ــ على المماليك والأتراك أن يهتموا بــالجوانب العســكرية على حساب الجوانب الحضارية الأخرى ، ومــا كــان بإمكانــهم أن يرفضوا المواجهة ، ويتخلوا عن هذه الوظيفة التى فرضت عليهم .

وقد أتاح هذا التحدى العسكرى لخصومهم أن يتهموهم بــالخمول الحضارى ، وهو اتهام غير صحيــح فضــلاً عــن أنــه لــم يكــن باستطاعتهم تجاهل التحدى الخارجى كما ذكرنا ، ومع ذلك فإن ثمــة إسهامات حضارية كبيرة قام بها هؤلاء وأولئك فى خدمــة الشــريعة الإسلامية .

إن القاهرة ــ مثلاً ــ فى العصر المملوكى (٦٥٦ _ ٨٥٧هــ) يقول عنها ابن خلدون (ت ٨٠٨) الذى زارها ، وعاش فيها آخــــر أيامه : -

(إنها جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، مدينة ازدانــــت بالقصور والدور الفخمة ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفــــة) ، وفـــى تعليقه على كلام ابن خلدون يضرب (ول ديورانت) المثل بقايتبـــاى بأنه : " أعظم البناة بين المماليك البرجية ، وبالرغم من أن الحـــرب أنهكته فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة الكثيرة فى مكة والمدينة والقدس ، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والأزهر ، وشيد نزلاً ، وبنى داخل العاصمة مسجداً [1].

إن ابن بطوطة يعدّ ــ مع ابن خلدون ت ٨٠٨ هــ وابن الخطيب (٧٧٦هــ ــ ١٣٧٤م) من هؤلاء الذين نجد عندهم وصفــاً للحيـــاة الاجتماعية فى هذين العصرين المملوكى والتركى .. وعندمــا نتبــع وصف هؤلاء وغيرهم فسوف نجد الشريعة الإسلامية هى المهيمنــــة على روح المجتمع وسلوكياته ، مع وجود أخطاء بشرية ، ولا ســيما فى مستوى العسكر والسياسة !! و " ديورانت " ــ وهو يحلــــل لنـــا هذين العصرين نجده أكثر دقــــة وإنصافــاً مـــن أكـــثر المؤرخيـــن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢٦/ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .

المسلمين .. فقد زار ابن بطوطة أكبر الحكام المسلمين فى عصـره ، والتقى بالعلماء أيضاً ، وحين عدد أعظم الملوك فى عصره حصرهم فى سبعة ملوك ذكر أن منهم ستة من المسلمين ، وواحداً صينياً [١] . وأما العلماء فى هذا العصر فقد كانوا كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى [٢] ؛ وكان أعظم الكتاب إنتاجًا فى التاريخ الطبيعى من المسلمين خلال القرنين السابع والثامن للهجرة . وإن الكتاب العظيم (الحيوان) الذى ألفه محمد الدميرى لمن أقوى الشواهد على هذه الحقيقة ،كما كانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى [٣] .

وقد كانت الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد للتشريع والقضاء وكان الفقهاء هم القائمون على حراستها والاستنباط منها . ويفسر لنا الأستاذ حنفى محمود خطاب ما كان لرجال الدين من سطوة ونفوذ فى الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول : " إن الدين كان منبع القانون بين الناس ، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة الإسلامية ، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام ، لأنهم عاشوا

(١) المرجع السابق : ٢٥/ ص ٧٤، ٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

عيشة عسكرية منذ نشأتهم ، ولم يعرفوا من شـــئون الديــن ســوى ما تلقنوا من مبادئه الأولى فى شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقــها " وكان من الطبيعى أن يترك المماليك لرجال الدين تلك الناحيـــة مــن شئون الدولة "[1] وقد برز من علماء الإسلام فى هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (سنة ٦٦٠هــــ) وتقى الدين عبد الوهاب بن نبت الأعز قاضى قضاة الشـــافعية ســنة ٦٥٤ هــ وصاحب مواقــف مشــهورة ، وشــيخ الإســلام الإمــام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، وهو أشهر من أن نقف عنده .!!

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة علـــى المســتويين الشــعبى والرسمى فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم .

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئـــة ضــد الســلاطين ، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم ، كما فعلــوا مــع الســلطان الظاهر برقوق عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال والعــدو (المغول) زاحف على البلاد ، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مــال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس ، فلم يوافقوا على ذلــك ، بــل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول ، لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخـــراج الأراضـــى ســنة

---

(١) حنفى خطاب : الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى . رســالة ماجســتير ١٩٤٣ ، جامعة القاهرة ، ص ١٢١ .

كاملة فقط وتبقى الأوقاف على حالها ، وهذا يعتبر انتصاراً شبه كامل لاحتجاج علماء الدين ، كما كان لعلماء الدين دور كبير في الأزمات وعند وقوع البلاء [١] .

وقد حظى علماء الدين بمكانة كبيرة فى عهد السلطان المملوكى الظاهر برقوق (٧٨٤ــ ٧٩١هــ) فقد كان يوقرهم ويحبهم ، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه .. وحتى هؤلاء الذين أخطأ فى حقهم مثل الشيخ شهاب الدين الشافعى .. الذى ما إن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد حتى أرسل خلفه واعتذر إليه،ومن ثم أعاده إلى بلده مكرماً [٢] .

وفى عهد السلطان المملوكى المؤيد شيخ (٨١٥ــ ٨٢٤هــ) ارتفعت مكانة العلماء ؛ نظراً لأن السلطان نفسه كان متديناً ، وكان يحب الدين وينقاد للشرع فى جميع أموره وأحواله ، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء ، وهو لابس جبة صوف بيضاء وعلى رأسه عمامة صغيرة متجرداً من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة ، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين ، ثم يصلى من غير سجادة ويمرغ وجهه فى

---

(١) شريفة المنديل : الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الثانية ــ رسالة ماجستير ــ كلية الآداب للبنات فى الرياض ١٤٠٩هــ / ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق / ص ١٢٠.

التراب ويبكى تضرعاً لله تعالى [1].

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم فى أى أمر ، فعندما اجتمع السلطان بهم عام ٨٢١هـ (١٤١٨م) واستشارهم فى أمر قتال يوسف ، أفتوا بجواز قتاله نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته ، فما كان من السلطان شيخ إلا أن أسرع فى تجهيز العسكر تنفيذاً لذلك [2]، وعندما رفض القاضى جلال الدين البلقينى أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء فى الخطبة ، أن يهبط درجة حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله فى مكان أعلى من المكان الذى ذكر فيه اسمه ، لم يعارضه فى ذلك ، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع لله تعالى ورسوله الكريم ، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر وجامع ابن طولون [3] ، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم وتوجيههم إياهم إذا أخطأوا فى الاجتهاد .

---

(١) ابن إياس محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٢ ، ص ٤٦ ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٣ هـ .

(٢) المصدر السابق ، ٣٩/٢ ـ ٤٠ ، وانظر : شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص ١٢٥.

(٣) المرجعين السابقين .

وكان السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ـ ٨٤١هـ) منقاداً للشرع يحب الفقهاء ويقربهم .. وكانت له ثقة فى القاضى عبد الله عبد الباسط ، فكان منقاداً له كما ينقاد الطفل إلى أبيه .. وله كلمة مسموعة لديه يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط ، تكلم معه القاضى عبد الله عبد الباسط فى ذلك فعندئذ أذن للناس فى زراعته [1].

وكان لعلماء الدين دورهم فى توجيه السلطان إذا أخطأ فى الاجتهاد ، فمن ذلك أنه وقع الطاعون الكبير في الديار المصرية والذى سمى فيما بعد (بالفصل الكبير) لأنه انتشر فى جميع نواحى بلاد العالم ، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة والقضاة الأربعة ومشايخ العلم ، واستفتاهم فى ذلك ، وقال : أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقى هناك ، فعارضه أحد علماء الدين فى ذلك وقال له إن ذلك ليس من فعل السلف ، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنهم حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك [2] .

---

(١) ابن اياس : ص ١٥٣ ، وشريفة المنديل ، ص ١٢٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ٢/٤ ص ١٠٢١ (نقلا عن شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص ١٢٧) .

وقالوا للسلطان : إنه لابد من أن يمنع المظالم التى كثرت فـــى البلاد ، ويبطل المكوس ويمنع خروج النساء وهـن متزينـات إلـى الأسواق ، كما يأمر الناس بكـثرة الدعـاء والاسـتغفار ، وانفـض المجلس على ذلك ، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم .

وقد كان السلطان يستشيرهم فى كثير من أموره التى يعجـز أن يجد حلاً فيها ، حيث يجد عندهم الحل الكافى والجواب الشافى ، كمـا فعل عند استشارتهم فى أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس .

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ ٨٥٧هـ) يكثر من فعل الخير والبر ، شديد التدين ، وقد بشر أكثر الصـالحين بسـلطنته .. ولقى فى عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام ، وكان يسـعى لتطييب خاطرهم ويرضيهم بشتى الوسائل ، فمن ذلك ما وقـع بيـن قاضى القضاة سعد بن الدسيرى ، وبين قاضى القضاة شهاب الديـن ابن حجر من تشاجر ، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القـاضى ابن حجر نفسه عن القضاء ، فسعى السلطان إلى تطييب خـاطره ، فأعاده إلى منصب القضاء ، وخلع عليه وأكرمه .

وكان يهتم بالعلم والعلماء ويحضر الحفلات التى يقومون بها من أجل ذلك ، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بـن حجـر

بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح البارى فى شرح البخارى) [1] .

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعـــون لشـــروط بعــض القضاة ، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التـــى وصلـــوا إليـــها ؛ لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين [2] . وفـــى عـــهد السلطان قانصوه الغورى (ت ٩٢٢) عارض علماء الديـــن رغبـــة السلطان فى أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك .

وفى عهد السلطان الغورى ــ أيضاً ــ حدثـــت كائنـــة عجيبـــة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص ، وهى أنهم عزلوا جميعـــاً بسبب معارضتهم لرأى السلطان فى مسألة شرعية . فغضب السلطان منهم وعزلهم جميعاً وفى وقت واحد ، حتى أن مصر بقيت حوالـــى خمسة عشر يوماً لم يعقد فيها نكاح ولا وقع فيها أى حكم من أحكـــام الشريعة [3] .

وتدلنا تلك الحادثة على مدى جرأة علماء الدين ، وعلى مـــدى قوتهم فى مواجهة الظلم والخطأ ، حتى ولو كان ذلك ســـببا لعزلـــهم وإقصائهم عن وظائفهم .

(١) ابن إياس المصدر السابق ٢٠٧/٢ ، وشريفة منديل ١٣٠ .
(٢) شريفة منديل مرجع سابق ١٣١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم ، بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم ، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء ، فقد كان لهم الدور الكبير والفعال فى تولى السلطان طومان باى . فعندما قتل السلطان الغورى عام ٩٢٢هـ (١٥١٦م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع ولكن الأمراء ألحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره ، فوافقهم وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ أبو السعود الجارحى ، والذى أتى بالمصحف الشريف وحلف الأمراء عليه ، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باى لا يغدورنه ولا يخامرون عليه ولا يطالبونه بنفقته ، وينتهون عن مظالم المسلمين فحلفوا على ذلك ، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باى على ذلك [١] .

وقد بقى الأمر بين طومان باى والعلماء على ذلك ، لكن عهد طومان باى لم يستمر إلا سنة واحدة ، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) ، وحملوا الراية ..

لكن العلماء ــ على أية حال وكما تدلنا الوقائع السابقة ــ كان لهم وجودهم الشرعى ،وقد أدوا واجبهم فى صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

---

(١) المرجع السابق .

وقد كان العثمانيون ــ فى أصلهم ــ قبائل تركية فرت من بــلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولى ، وقد أسلم جدهم (عثمــان بــن طغرل) واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول ، ومن ثم نجح فى تشكيل دولة تنسب إليه ، فاتخذ مدينة ــ (قره حصار) قاعدة له ، واســتقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة ، وأصبح ملاذاً لكثير مــن المسـلمين الذين يفرون من وجه التتار ، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه ، ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده دلالة على ارتباطــهم بالإسلام وليس بالعصبية ، وتوفى فى سنة ٧٢٧ هــ ، وكان خلفــاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين . وتقدم العثمــانيون فى أوروبا وفتحوا مناطق واسعة ، وأخيراً تمكن محمد الثانى من فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧هــ ، وغدا اسمها (إسلام بول) ويطلق عليها (استانبول) [١] .

ولم يكن انتصار الغازى محمد الثانى فى القسطنطينية هــو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان ، ولكن (الرمز) أو القيمــة المعنويــة لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم .

لقد أحرز الفــاتح أول انتصاراتــه وأضخمــها علــى ضفــاف البسفور ، وهو ابن اثنين وعشرين عاماً (٨٥٧هــــ ــ ١٤٥٣م) ،

---

(١) إسماعيل ياغى ومحمود شاكر : تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ، الجــزء الأول ، ص ١٥١، ١٥٢ ، ط / دار المريخ الرياض ١٤٠٤هــ ..

فلم يداخله الغرور لما أحرزه ، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققـه ، فمضى للصلاة فى مسجد (أياصوفيا) شاكراً لله على ما منحه مـن النعمة ، وأطلق على المدينة المحررة فـوراً اسـم مدينـة الإسـلام (إسلامبول) ، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابى (أبى أيـوب الأنصارى) الذى استشهد فى حصار القسطنطينية أيام معاويـة بـن أبى سفيان (سنة ٥٢هـ) فأقام عليه مسجداً مبرهناً على أن الفتـح العظيم لم يكن إلا امتداداً لجهاد العرب المسلمين من أجل رفع رايـة الإسلام والمسلمين .

وعرف الفاتح أن هذا النصر لابد وأن يسـتثير حقـد الحـاقدين من الفرنج والصليبيين فمضى مجاهدًا فى سبيل الله ، محتسبًا الأجـر والثواب على الله ، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفًـا للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام [١] .

وقد اتجه حفيد محمد الفاتح السلطان سليم إلـى دخـول الأقـاليم العربية ، والوقوف فى وجه البرتغاليين الذين أرادوا حربًـا صليبيـة واضحة ، وتعدوا من جهة الجنوب ، فدخلوا عدن ، واحتلوا منـاطق الخليج العربى ، كما استطاعوا بمساعدة الأحبـاش دخـول البحـر

---

(١) بسام العسلى : الفاتح القائد ، ص١١ـ ١٢ ، دار النفائس ، ط ١٤٠٦هـ .

الأحمر ، كما استطاع العثمانيون دحر الفرس الذين اتخذهم البرتغاليون مطية لهم .

وكما انتصر المماليك فى معارك كثيرة برية وبحرية كان أشهرها (عين جالوت ٦٥٨هـ) كذلك فإن العثمانيين قد واجهوا الزحف الصليبى الذى كاد يدخل فى أعماق الغرب والشرق الإسلامى ، بعد إسقاطه لغرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) وقد زحف الصليبيون فعلاً على تونس والجزائر خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة . ولم يوقف هذا الزحف إلا ظهور القوة العثمانية .

وكما ذكرنا فقد فرض الصليبيون على الدولة العثمانية أن تكون فى حالة استعداد حربى دائم .. وحسبنا أن نذكر هنا بعض هذه الحروب ، حتى لا يتعجل المنصفون فى إصدار الأحكام الظالمة على هذه الدولة .

بالإضافة إلى سهرهم الدائم على الشواطئ الإسلامية فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الأطلسى ــ وهو جهد استمر كثيرًا ــ فقد واجه العثمانيون خلال وجودهم فى القرن التاسع عشر الميلادى وحده (الثالث عشر الهجرى) حملة نابليون بونابرت على مصر ، وحملته على الشام ، وحرب الصرب (١٨٠٤ ــ ١٨١٧م)

والحرب مع روسية (١٨٠٦ ــ ١٨١٢م) وثورة اليونـــان (١٨١٢ ــ ١٨٢٩م) ومعركة نافارين البحرية التى اتحـــدت فيـــها انجلـــترا وفرنسا وروسيا ــ بروح صليبية (١٨٢٧م) ضد الدولة العثمانيـــة . ثم احتلال الجزائر (١٨٣٠م) وحملة إبراهيم باشـــا علـــى الشـــام بتشجيع من القوى الصليبية الفرنسية ، ثم احتـــلال بريطانيـــا لعـــدن (١٨٣٩ م) وحرب القرم (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦م) وحـــرب الجبـــل الأسود (١٨٦٢م) وحرب الصـــرب الثانيـــة (١٨٨١م) والحـــرب التركية الروسية ١٨٧٨م واحتلال فرنسا لتونـــس ١٨٨١م وانجلـــترا لمصر ١٨٨٢م والحرب اليونانية ١٨٩٧م واحتـــلال إيطاليـــا لليبيـــا ١٩١١م ثم حرب البلقان ١٩١٢م[١] .

وهكذا ــ من خلال نموذج الحـــروب التـــى خاضتـــها الدولـــة العثمانية فى القرن التاسع عشر وبداية القـــرن العشـــرين ــ نســـتدل نوعية العلاقة العثمانية الأوروبية وأسلوب الصراع ــ الذى كان دائـم الوجود بين الدولة العثمانية وبين أوروبا التـــى لـــم تنـــس أن دولـــة آل عثمان هى التى أوقفت زحف الصليبيين على العالم الإسلام بعـــد إسقاطهم الأندلس !!

---

(١) انظر : بتصرف : عمر فروخ : تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينـــه ، دار البـــاحث ــ بيروت ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

لقد كان المجتمع الإسلامى فى العهد العثمانى مجتمعًا إســـلاميًا جهاديًا ، شأنه شأن المجتمع الإسلامى فى العصر المملوكــى ، وقــد تفوق إسلاميًا وكاد يسيطر على أوروبا لولا ظهور الصفويين الشــيعة الذين حركتهم أوروبا الصليبية ، فاشتبكوا مع العثمانيين وأوقفوهــم ، وبددوا طاقتهم فى حروب داخلية !!

وكما خضع المماليك لعلماء الشريعة وأطلقوا أيديهم وقبلـــوا أن يحكم عليهم سلطان العلماء العز بن عبد السلام بغرامات وتضحيـــات كثيرة ، وكذلك كان العثمانيون يخضعون لعلماء الإسلام والشــريعة ، ممثلة فى المفتين والقضاة والمحتسبين .

وكان المسلمون الخاضعون للدولة العثمانية ــ كما يقول العلامــة الدكتور عمر فروخ ــ رحمه الله ــ " لا يشكون شيئًا يحملهم علـــى النقمة ؛ فإن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة ، وبذلك كانت دولتــهم وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت فى أواخر أيامها بأحوال قاســية ، فإن تلك الأحوال كانت خارجة عن سيطرة الدولة العثمانيــة وكــانت قسوتها عامة فى الترك والعرب ؛ وفى المسلمين وغير المسلمين ، ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحـــوال القاســية لأنـــهم (أو لأن أسلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التى كانت للدولة العثمانيـــة فـــى

تاريخها الطويل . ثم إن الدولة ليست فى المغانم المادية فحسب بل الدولة جو روحى أيضًا يعيش فيه الفرد وتعيش فيه الجماعة على رضا واطمئنان فى حالة الأمن وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين في حالة البأس والشدة [1] .

وقد عاش النصارى كذلك حياة طيبة تحت ظل الشريعة والحكم العثمانى ، وما شكوا شيئًا فى الدولة لا فى أيام الرخاء ولا فى أيام الشدة ففى أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون فى الحقوق ثم يزيدون فى أحيان كثيرة فى الامتيازات على المسلمين ولقد كان النصارى واليهود فى الامبراطورية العثمانية ملوك الاقتصاد والتجارة . كان على المسلم أن يقوم بالخدمة العسكرية يقضى فيها السنين الطوال وربما مات فى حملة من الحملات على اليمن أو فى معركة من المعارك مع الروس ، أو أراد المسلم أن يُستعفى من الخدمة فكان عليه أن يدفع البدل العسكرى (خمسين ليرة عثمانية ذهبًا) مرة أو مرتين أو أكثر يقضى جانبًا كبيرًا من العمر فى تحصيله وجمعه فيمنعه ذلك كثيرًا مما يريد من العلم والزواج والعمل المنتج ، أما غير المسلم فكان معفيًا من الخدمة

---

(1) عمر مفروخ : مرجع سابق ، ٢٨٢ .

العسكرية [١] ـــ لأسباب كثيرة أيضًا ـــ!!

ولأن الدولة العثمانية كانت ـــ كما ذكرنا ـــ دولة جهاد ـــ فقـــد كان من طبيعة الأشياء أن تكون التنظيمات قائمة فى الدولـــة علـــى مضمون الجهاد فى سبيل الله [٢] . ولم يكن غريبًا أن تكون الصفـــة الملازمة لاسم السلطان العثمانى هى صفة (الغازى) [٣] .. وكـــانت الشريعة تحكم مجتمعًا جاداً لم تتفش فيه صـــور التحلـــل والابتـــذال والانحلال الأخلاقى التى عرفت فى بعض المجتمعات .

لقد كانت أوروبا النصرانية بدولها المختلفة تقف فى وجه الدولـــة العثمانية المسلمة وتحرض على إخراجـــها مـــن أوروبـــا الشـــرقية واقتطاع أجزائها ، وإذا كانت دول أوروبا تختلف فيما بينها ويتنـــافس بعضها مع بعض فى سبيل امتداد نفوذها ، واقتطـــاع أجـــزاء مـــن الدولة العثمانية ، وأخذها الخيرات والأسلاب ، إلا أنها كانت تنســـى كل خلافاتها وتتفق فى وقوفها فى وجه العثمانيين [٤] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) بسام العلى : سليمان القانونى ، ص ٨ دار النفائس بيروت ط ١/ ١٤٠٦هـــ .

(٣) المرجع السابق، ٧ .

(٤) إسماعيل ياغى ومحمود شاكر : مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

وقد حاول السلطان العظيم (عبد الحميد) فـــى مســتهل القــرن العشرين للميلاد (١٢٩٣ـ ١٣٢٦هـ) أن يقوم بعــدد كبــير مــن الإصلاحات ، ورفع شعار (يا مسلمى العالم اتحدوا) ، وأقام ســكة حديد الحجاز ، وحاول تحريك الأمة علميًا ، وجمع العلماء حولــه .. لولا أن القوى العالمية وقفت ضده .

ومع ذلك كله ، فثمة ملاحظة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عنــد تقويم العثمانيين ، بالإضافــة إلــى الملاحظــة الخاصــة بطبيعتــهم العسكرية نتيجة ظهورهم فى عصور هجوم أوروبــى علــى العــالم الإسلامى بعد سقوط الأندلس ، واضطرارهــم للتصــدى للحــروب الصليبية والدفاع عن العالم الإسلامى .. هذه الملاحظة (الجديــدة) هى أن العثمانيين ، وإن كانوا قد نجحوا نجاحًا رائعًا فى رفع رايــة الإسلام عالية فى الدنيا ، وألقوا مهابته فى نفوس العــالم بهزائمــهم لأوروبا مرارًا لثلاثة قرون منذ قيام دولتهم ، إلا أنهم كانوا هم كذلــك يسيرون فى طريق الانحطاط كعامة الأمم المسلمة فى هذا الزمــان ، بينما الأمم الأوروبية التى تقابل الأمة التركية فـــى الميــدان والتــى عاصرتهم كانت تسير فى طريق الرقى المادى والتقدم الفكرى ، وفى القرن السابع عشر الميلادى (الحــادى عشــر الــهجرى) انقلبــت الأحوال ، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكرى وتضاعف القوة المادية

والمعنوية عند أمم الإفرنج أنها هزمت الأتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة فى معركة سينت جوثرد [1] .

هكذا كان الموقعان والظرفان مختلفين ، ومع ذلك قام العثمانيون بدورهم على خير ما استطاعوا . وقد قدموا صفحة استمرت خمسة قرون دفاعًا عن الإسلام وشريعته وحضارته .. ولو لم يكن العثمانيون لاستطاعت أوروبا احتلال العالم الإسلام فى وقت مبكر ، ولكان مصير كثير من الدول الإسلامية لا يعلمه إلا الله .. وما فعلته فرنسا فى الجزائر خلال مدة لا تزيد عن مائة وثلاثين عامًا دليل على نوعية ذلك المصير الذى كان ينتظر المسلمين لولا أن قيض الله العثمانيين جزاهم الله خيرًا .

---

(١) أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، ص ١١٠ ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ويطلق على المعركة (سان جونار) فى الترجمة العربية .

تاريخنا الإسلامى والطبيعة البشرية

فى كل التجارب التاريخية ثمة رصيد ثابت للطبيعة الإنسانية فى مستوياتها التعبيرية المختلفة ..

إن الإنسان ، وهو . فى إنسانيته ــ ليس نسقاً واحداً مضطرداً بطريقة آلية ، بل هو مزيج مركب من العناصر والتناقضات التى تجعله يعيش ــ إلى حد كبير ــ قدراً كبيراً من التوتر والصراع داخله بين القوى المختلفة .. كما أنه ــ بهذا الكيان المركب ــ يواجه الحياة الخارجية التى تخضع ــ هى أيضاً ــ لنمطية متدافعة بين قوى الخير وقوى الشر ..

فثمة توتر فى داخل الإنسان ، وثمة تدافع بين الإنسان ونوعية الحضارة التى يبدعها الإنسان ..

ومن البدهيات أن هذا التوتر ــ فى الداخل أو مع الخارج ــ هو نفسه الطريق لإبداع الحضارة .. إذ السكون المطلق هو الطريق الطبيعى للجمود والموت ..

وكل ما تصنعه المبادىء الرفيعة فى رحلة التاريخ ــ وعلى رأسها الإسلام ــ أنها تجعل الإيقاعات متناغمة متنافرة ، وأنها تحُول دون أن تقضى الشوائب والسلبيات على نهر الحياة الإنسانية .. فيبقى الشر ــ وبخاصة فى مراحل الازدهار ــ محصوراً فى جوانب

قليلة ، وفى دائرة الشذوذ ، بينما يمتد الخير إلى معظم المساحة الإنسانية ، ويمثل ـ بالتالى ـ قاعدة الحياة الإنسانية .. إن المجتمع الذى لا أخطاء فيه ليس مجتمعاً إنسانياً ، مثل هذا المجتمع لا يوجد ـ لا يمكن أن يوجد ـ فى التاريخ البشرى .. والفترة التى وجد فيها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ولا سيما فى لحظات انتصارهم وسيطرة مبادئهم ـ هى أعلى المراحل التى يمكن أن تصل إليها البشرية ..

إنها المثال الذى تضعه العناية الإلهية فى " نموذج تاريخى " واقعى لكى تبقى البشرية متفائلة مقاومة للشر ، متوترة ، ساعية إلى الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من هذا المثال الحى الواقعى .

وليس فى طريق الطبيعة الإنسانية أن يقوى الناس جميعاً ـ أو أكثرهم ـ على الوقوف فى القمة والتشبث بمواقع البطولة والمثال .

إن سحرة فرعون الذين قالوا عندما تألقت الحقيقة فى ضمائرهم : ﴿ **آمنا برب العالمين** ﴾ .

وفاجأوا فرعون بإعلانهم : ﴿ **إنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ غير عابئين بتهديده الرهيب : ﴿ **فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين**﴾ [1].

---

(١) الأعراف : ١٢٣ ـ ١٢٤ .

إن هؤلاء السحرة قد ارتفعوا فى لحظة من التاريخ إلـــى أعلـــى ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تصل إليه ، وليــــس لنـــا أن نتوقـــع أن يكون كل الناس مؤهلين لهذا الارتفـــاع ، ولا لـــهذا القـــدر مـــن التضحية الرائعة ، ومن التفانى فى الحق المتألق ..

كما أنه ليس مطلوباً من كل الناس أن يكونـــوا فـــى مســـتوى أبى بكر الصديق الذى يتبرع بكل ماله .. إن أبا بكر مجرد . (نموذج للمثال) ، أما المستوى المتناغم مع الطبيعة البشرية فـــهو المســـتوى الذى حدده الرسول عليه الصلاة والسلام ، عندما منع (سعد بن أبـــى وقاص) من أن يتصدق بكل ماله ، بل رضى له ما هو أقل من ذلـك حتى يذر ورثته أغنياء لا يتكففون الناس ، وحســـبه أن يـــهب ثلـــث ماله .. بل إن الثلث كثير !!

ونموذج الأنصار الذين منحهم القرآن أرفع درجة فى التـــاريخ ــ الإيثار بالمال والأرض ــ هو أيضاً مجرد للمثال الذى يقـدم أروع صورة تستطيع البشرية أن تقترب منها ، وليس شرطاً أن تكون فـــى مستواها ، فيصبح كل مسلم قادراً أن يقول لكل مســـلم : انظـــر أى مالى أطيب فخذه ، أو انظر أى زوجتىَّ شئت فأطلقها لتتزوجـــها ..!! إن هذا المستوى ليس هو المستوى العادى للطبيعة البشـــرية .. إنـــه الومضات الإنسانية التى تمثل أعلى ما يمكن أن يصل إليه البشـــو .. إنه مستوى القمة والمثال ..

وليس من الموضوعية أن يحاكم التاريخ البشرى بأقوى وأكبر مما تطيقه الطبيعة البشرية .. وحتى القوانين الوضعية ترفض هذا المقياس ، بل إنها لتتدنى فتهبط خضوعًا للضعف البشرى إلى مستوى تقنين هذا الضعف ، وجعله فى نطاق الجائز ، بدلاً من أن يُدعم جانب مقاومته لتصعد به إلى المستوى المنسجم مع الطبيعة البشرية ، تلك الطبيعة التى لا يجوز لها أن تستسلم لصور الضعف وتقبل تحويلها من دائرة الشذوذ إلى دائرة القاعدة ، ومن جانب الخطأ إلى جانب الصواب !!

وأحرى بمنهج دراسة التاريخ وتفسيره أن يلتزم هذه العدالة فى التقويم ، وأن يضع فى وعيه التصور الموضوعى للإنسان كله ، بكل قوته وضعفه ، وبكل العناصر التى ركب منها .

إن محاولة رفع بعض عصور التاريخ إلى درجة فوق مستوى البشر وطاقة البشر بهدف التدرج من هذا الارتفاع إلى محاسبتها بميزان غير بشرى ، ومطالبتها بأن تكون معصومة متجردة من كل النوازع البشرية ، ومن كل ما يجوز على البشر .. إنما هى مؤامرة لتشويه هذه العصور (!!) والعلمانيون يستثمرون هذه المؤامرة !! بهدف مسبق هو تشويه تاريخنا الإسلامى ورجاله العظماء ودوله العظيمة .

إننا نوافق بالطبع ، بل نحن نؤمن ، بضرورة أن تكون بعض عصور التاريخ ، وأن يكون بعض صناع الحضارات العظمى ، بعيدين عن التدنى إلى المستوى العادى فى الأخطاء ، وبأن يكون لهذا المستوى الرفيع تعبيره الخاص عن بشريته بما ينسجم مع القمة التى يمثلها .. ونحن نستطيع فى ضوء هذا الوعى ـ تحليل بعض التصرفات التى تعزى إلى هؤلاء تحليلاً مناسبًا لمكانتهم ، لكن تجريدهم من المستوى البشرى ـ بإيجابياته وسلبياته واجتهاداته العقلية والسلوكية الصحيحة والخاطئة أو المعيبة ـ ووقوعه تحت ضغوط أوردود أفعال ومؤامرات ـ إنما هو أسلوب غير موضوعى وغير صحيح !!

ولقد سقط كثيرون ـ سقوطًا منهجيًا فى الأساس ـ عندما تعاملوا مع تاريخنا غير مسلحين بهذه الرؤية التاريخية الإنسانية الموضوعية .. وسواء كان الأمر عن حسن نية أو سوء قصد ، فقد انتهى كثير من هؤلاء ـ نتيجة فساد منهجهم ـ إلى تجريح بعض الصحابة ، وإلى تضخيم صور الخلافات بينهم ، وإلى القول فى نهاية الأمر ـ بأن شريعة الإسلام لم تطبق إلا فى حقبة من الزمان تنتهى بنهاية عصر الراشدين (٤١ هـ) .. أما العصور التالية ، والتى تبدأ بالدولة الأموية (٤١ـ١٣٢ هـ) وتستمر حتى اليوم ، فهى

عصور (علمانية) غابت عنها الشريعة ، وحكمتها معادلات سياسية مصلحية ، وأوضاع اجتماعية واقتصادية بشرية لا صلة لها بتعـــاليم الإسلام (!!) وهذا قول بالغ الفساد عظيم الظلم لا ينتمى إلى تاريخنـــا بصلة وقد كشفنا هذا التجنى فى الصفحات الماضية !!

وفى الصفحات التالية نعرض للتاريخ الإسلامى بعـــد الراشـــدين والتحليل النقدى له ..

تاريخ ما بعد الراشدين والتحليل النقدى

لقد عالج كثيرون ــ مسلمين وغير مسلمين ــ تاريخنا بمنهج غير علمى ، وقد جاء تقويمهم جانحًا يميل إلى الإفراط أو التفريط .. وقد غلبت على بعضهم نزعات مذهبية جعلتهم يحللون النظم والدول والوقائع وفقًا لرؤية مسبقة ، وقلما ينجحون فى كشف حجب التاريخ ورصد الوقائع رصدًا موضوعيًا ..

لكن مثقفى الأمة وجمهور مؤرخيها استطاعوا ــ بمنهج النقد المستفيد من منهج علم الحديث إلى حد كبير ــ رصد الخلفية المذهبية لهؤلاء ، ومن ثم تحليل كتاباتهم التاريخية وتقويمها تقويمًا علميًا ..

وفى هذا السياق رصد المنهج التاريخى الإسلامى تلك المصادر التى يتحرك مؤلفوها بخلفية مذهبية مسبقة تحول دون تحقيق القدر المقبول من الموضوعية .. ولم يترك تاريخنا دون تحليل نقدى كما يزعم أركون وتلامذته !!

وبدءاً من تدوين السيرة كان ثمة تقويم خضع له رجال التدوين الأولون ، بعيدًا عن التعصب والهوى ..

فقد قيل عن شرحبيل بن سعد (ت١٢٣هـ) إنه يميل إلى العباسيين لأسباب مصلحية !!

وقيل عن وهب بن منبه (ت ١١٤هـ) إنه شغوف بالطرائف التى أوقعته فى الإسرائيليات ..

وقيل عن الواقدى (٢٠٧هـ) إن له ميولاً لآل البيت .

وقيل عن أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى (١٥٧هـ) إنه يميل لآل البيت ولقبيلة الأزد [١] .

أما كاتب السيرة الكبير ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) فقد هاجمه المحدثون لأن الفروق بين منهجى الحديث والتاريخ لم تكن وضحت ، وكان المحدثون – جزاهم الله خيرًا – يريدون أن تكون درجة روايات التاريخ فى مستوى درجة روايات الحديث .. وأن يخضع المؤرخ لشروط المحدث ولهذا فإن وقائعها تحاكم إلى ما ورد فى القرآن والسنة الشريفة .. لكن المراحل التالية يصعب أن تخضع لمنهج الجرح والتعديل الذى خضع له رجال الحديث .. وإن كان هذا مطلبًا كريمًا يجب أن يعمل المؤرخون على تحقيقه .. !!

---

(١) محمد ياسين مظهر الصديقى : قضايا كتابة التاريخ الإسلامى وحلولها نشر الجامعة السلفية بنارس – الهند – جمادى الآخر ١٤٠٩هـ ، انظر : محمد السلمى منهج كتابة التاريخ الإسلامى ، طبع دار طيبة بالرياض / الأولى ١٤٠٦هـ ص ٤٨١ . [وكل المسلمين يحبون آل البيت ، لكن المراد بالميل هنا الاقتراب من ظلم من اختلفوا مع آل البيت وليس مجرد تخطئتهم !!] .

ولئن كان هذا الجيل من التابعين وتـــابعى التـــابعين قـــد تعرضـــت رواياته لمبضع النقد .. فقد اتجه النقد إلى المؤرخين الذيـــن جـــاءوا بعدهم من باب أولى ..

وقد ذكر المؤرخون أن المسعودى (ت ٣٤٥هـ) كان ذا ميـــول لآل البيت دفعته إلى التحيز ضد الأمويين ، ومع ذلك تمتع بقدر مـــن الاعتدال والموضوعية عندما تحدث عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وعن عبد الملك بن مروان ، وغيرهما مـــن رجـــال بنـــى أمية !!

وكان اليعقوبى يمضى فى الطريق نفسه ، بل كان واضح التحيز لآل البيت !!

أما أبو الفرج الأصفهانى (٣٥٦هـ) صاحب الأغانى ، فقـــد كان أجيرًا لبنى بويه الشيعة ، وقد كتب لهم الأغـــانى بغيـــة الأجـــر والمكافأة ، وقد عرف ما يرضيهم ، فأدان الأمويين وبعض العباسيين وبعض آل البيت من أجلهم ، وبالغ فى ذلك حتى ينسى الناس أصلـــه الأموى !!

بينما كان ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) صاحب صـــورة الأرض ، جاسوسًا للفاطميين يحرضـــهم ضـــد الأندلـــس ويســـب الأندلســـيين والأمويين فى الأندلس من أجلهم ..

وكان المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشـــى (ت ٦٣٠هـــ تقريبًا) صاحب (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) يعمل موظفًا لدى الموحدين ، وقد كتب كتابه (المعجب) من أجلهم ، وليس لنـــا أن نتوقع منه إنصافًا للمرابطين الذين قضى الموحدون عليهم بطريقـة دموية آثمة !!

والأمثلة كثيرة لا نريد أن نستطرد فى ذكرها ، من أجل تـــأكيد حقيقة ثابتة ، وهى أن المؤرخ المسلم الذى يضـــرب بجـــذوره فـــى أرض " علوم السنة " والذى تشكل أساسًا على منهج إيمـــانى نقـدى إبداعى باحث عن الحق المجرد ، لم يكـــن مؤرخـــا تقليديـــا نمطيـــا استسلاميًا سكونيًا كما يحـــاول خصـــوم الحضـــارة الإســـلامية أن يصوروه !!

وما كان العقل النقدى المسلم ــ لو كان عقلاً سكونيًا تقليديًـــا ــ قادرًا على إفراز عمالقة فى علم نقد الرجـــال ، وفـــى نقـد المتـــن (المضمون) يعدون بالآلاف فى حضارتنا ، وعلى رأســـهم أئمـــة الحديث المعروفون ، وعلى رأســـهم البخـــارى ومســـلم والـــترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة ، وعدد كبير من الفقهاء وعلى رأسهم أئمة المذاهب الثلاثة عشر الذين انتشر من بينهم فقه أقطاب المذاهـــب الأربعة أبو حنيفة (ت ١٥٠ هــ) ومالك (ت ١٧٩هــ) والشافعى (ت ٢٤٠ هــ) وابن حنبل (ت ٢٤١هــ) ثم الظاهرية بقيادة داود

الظاهرى ومحمد على بن حزم (ت ٤٥٦هـ) ثم الإمام أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ) والمؤرخ الاجتماعى الكبير عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) الذى يعده المؤرخون الأوروبيون المنصفون أول من وضع نظرية فى علمية (علم التاريخ) وفى قوانين (تفسير التاريخ) !!

وعبر تاريخنا الممتد فى الزمان أربعة عشر قرنًا ، والممتد فى المكان إلى مساحة كبيرة من أكبر قارات الأرض ، والتى شملت – فى قرون كثيرة – دولاً تقترب من نصف العالم ، وتسيطر على العالم المتحضر ما يقرب من عشرة قرون

عبر هذا التاريخ ظهر آلاف من المشتغلين بعلوم النقد المنهجى ، بدراسة علوم الحديث وفروع السيرة والتاريخ ، ويرصد الجوانب الإصلاحية والحضارية ..

وكان هؤلاء جميعًا يتعاملون فى الإطار البشرى ، بمعنى أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، فكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك ، والمهم أن يكون النقد منهجيًا قائمًا على أصول علمية ، ولا يكون مجرد دعاوى أو افتراءات واختلاقات ، وقد وضعوا كتبا فى أدب الاختلاف وأدب الحوار ، وفى منهج الوصول إلى الحق من خلال الشك المنهجى ، والتمحيص القائم على قواعد صحيحة والهادف إلى الحق .. وقد انطلقوا فى ذلك من القاعدة النبوية الكريمة

التى تعلمهم أن المجتهد الذى تتوافر فيه مؤهلات الاجتهاد والذى يلتزم منهج الحق مثاب سواء أصاب فى اجتهاده أو أخطأ .. وحتى يبذل المجتهد أكبر جهد فى الوصول إلى الصواب أعطى المجتهد المصيب أجرين ، وأعطى المجتهد المخطئ أجرًا واحدًا !!

وفى حضارتنا العلمية كانت الأحكام الإجمالية مرفوضة فالعقل المسلم درج من خلال منهجه فى علوم الحديث وأصول الفقه والتفسير واللغة والبلاغة على تفكيك القضايا وتحليلها ، ومن ثم إعادة تركيبها .

وقد بالغ العقل المسلم فى التحليل (التفكيك عند أركون) لدرجة جعلت بعض المستشرقين (والمستشرق جب[1] على رأسهم) يتهمون العقل المسلم بأنه عقل " ذرى " (أى جزئى غير قادر على التركيب والتقنين الكلى) !! .

---

(١) انظر : كتابه (وجهة الإسلام) لكن (جب) تجاهل فى هذا الاتهام أمرين :
أولهما : أن الذّرية) التى لا تعود إلى التركيب من سمات كل عصور التخلف وليست خاصة بجنس دون جنس .

وثانيهما : أن المسلمين أفرزوا مناهج علمية واكتشافات وقوانين وكليات وعلوما ونظريات رائعة نظرية وتطبيقية فى عصور ازدهارهم .

وعندما كان المسلمون يمرون ببعض محطات التخلف كـــانت تظهر فيهم ــ مثل غيرهم ــ بعض مظاهر التخلف التـــى يرصدهـــا خصومهم ، ويزيد بعضهم برؤية مضادة وظالمة أن يجعل من هـــذه المظاهر سمة عصورهم كلها ، وبالتالى سمة دينهم وحضارتهم !!

وإن أمة تملك علوم الجرح والتعديل ، وعلوم النقـــد التـــاريخى قبل أن تعرفها البشرية ، وتسبق العقل الحديث فـــى التعـــرف علـــى تفسير التاريخ وعلوم العمران والحضارة .. هذه الأمة لا تحتاج إلـــى من يلفتون نظرها ــ من خصومها ــ إلى ضرورة نقد أصولـــها .. إنهم لا يريدون نقداً وإنما يريدون هدماً .

الشريعة الإسلامية ومكانتها
فى تاريخ المجتمع الإسلامى

يظن بعض السطحيين أن تطبيق القيم الإسلامية قديماً أو حديثاً ، يرتبط بدولة أو مجتمع أو شعب ملائكى .. فكأن تطبيق الشريعة فى رأيهم مفتاح سحرى يلغى الجانب البشرى ويقضى على النوازع المادية والغرائزية ..!!

إن هذا قد يجوز بالنسبة لقلة ذات فطرة واستعداد معينين ، لكن المجموع البشرى يعيش الصراع الداخلى بين الخير والشر ، ويرتفع ويهبط ، ثم يتوب ويرتفع ، ويخلط العمل الصالح بغير الصالح .

بيد أن هناك ضمانتين استحق بهما المجتمع الإسلامى وهذا التاريخ الإسلامى أن يكونا تاريخا ومجتمعاً إسلامياً وهاتان الضمانتان يرتفعان بهذا المجتمع عن مستوى أى مجتمع بشرى آخر .

الأولى : أن هذا المجتمع مرتبط بأصلين ثابتين لا يمكن تحريفهما عن موضعهما بتأثير سلطة فوقية عقدية (بابوية) أو سلطة عسكرية أو سياسية حاكمة .. فالقرآن والسنة فوق عبث العابثين وجبروت المتجبرين .. وهذه هى **الضمانة الأولى** التى انبثق

عنها — فى مجال التطبيق والفكر معاً — أن أصبح محمد عليه الصلاة والسلام — صاحب السنة القولية والفعلية — هو الإمام النموذج لهذا التاريخ وحضارته الإسلامية . وعلى المسلمين — إن كانوا مسلمين حقاً — أن يعيدوا عبر كل مراحل التاريخ تقويم حياتهم الفكرية والأخلاقية والإنسانية لتقترب من نموذج هذا النبى (القدوة العملية والقرآن المتحرك الحى) .. وقد عاش سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كل أطوار الواقع البشرى .. فسالم وحارب ، وتزوج وأنجب ، وعاشر الأغنياء والفقراء والخدم والعبيد والنساء ، ومرض وعوفى ، وباع واشترى ، وعامل الصغار والكبار ، ودخل الأسواق ..

وبإيجاز قدم شخصية واضحة كل الوضوح تجمع بين البشرية والنبوة تهتدى البشرية بالنبوة ، ولكن تبقى النبوة فى دائرة **العصمة** التى لا يطالب الناس بها ، وتصبح البشرية المهتدية بالنبوة مجالاً للاقتداء والسباق بين الناس ..

أما الضمانة الثانية لهذا المجتمع الإسلامى : فهى الرأى العام — رأى جمهور الأمة — الذى يبقى — فى ضوء فطرته التى امتزجت بالشريعة — داعياً للمعروف ومنكراً للمنكر مهما كان السلوك مغلوطاً .. ومهما كان ضغط بعض الحكام وبعض الأوضاع وبعض دعاة الإفساد ، فالمجتمع المسلم يبقى منكراً للزنا ، وللخمر ،

والربا ، وللاستغلال ، وللشذوذ الجنسى ، ولم يسمح قط ــ فى عرفه أو إجماعه ــ بإباحة شىء مما أباحته بعض الحضارات ، وآخرها الحضارة الغربية التى تبيح اللواط ، والزنا والربا والخمور والتفرقة العنصرية ، واستنزاف ثروات الشعوب ، والكذب على أنبياء الله واستئجار عقول بعض المزيفين من أبناء الحضارة المغلوبة وذلك لتشويه حضارتهم والتجنى عليها !!

لقد كان هذا الرأى العام المسلم (ضمانة طبيعية) تعصم المسلمين من التفرق الفكرى والعقدى والتشريعى ، ومن الضلال الأخلاقى ــ بصفة عامة ــ مهما استبد الجهل بالمسلمين ، وكان من نتيجة هذا الرأى العام المسلم أن المسلمين الأوائل لم يقلدوا كل داعية ــ كما تفعل المجتمعات الغربية ــ " وإنما اختاروا من بين مئات الدعاة وعشرات المجتهدين عدداً محصوراً أولوهم الثقة وانتظموا وراءهم ونظموا أنفسهم ولم يسمحوا بمجال للفوضى " [1] .

وفى ظل الثوابت والإجماع والحس الإسلامى العام ، انطلقت الأمة الإسلامية فى رحلة صناعة تاريخها وحضارتها تواجه كل عصر بما تحتاج إليه تحدياته وتزودها الثوابت بالأسلحة ، ويحكم

---

(١) حسن الترابى : تجديد الفكر الإسلامى ص ٥٨ ، الدار السعودية للنشر ، ط٢ /١٤٠٧هـ .

حركتها الرأى العام ، وكانت تفرق دائماً بين مجالى النصّ والرأى ، والشريعة والفقه ، ما يقبل الاجتهاد ، وما لا يقبله .. ومعلوم أن التطبيق إنما يأتى تلبية للواقع العملى " ولما كانت الحالات الاجتماعية لا تكرر أبداً فى التاريخ ، إنما تتشابه مجرد تشابه ، فإن أى حكم تطبيقى فى حالة مضت ، وليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله ﷺ ـ إنما يصلح للاسترشاد به فى الحالات المشابهة التى تعرض للأجيال المتجددة ، ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق ؛ لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله ، وليس جزءاً من الشريعة الثابتة الصادرة من الله [1] .

فهكذا كان الميزان ثابتاً .. وحَول هذا الميزان نشا فى كل عصر مجتهدون وأئمة عرفنا بعضهم ، لكن أكثرهم لا يعرفهم إلا أهل الاختصاص ..

أما على مستوى ارتباط التاريخ الإسلامى ـ بصفة عامة ـ بشريعته ، فإن هذا الارتباط هو الذى صنع نسيج العلاقات الاجتماعية فى شتى المستويات والتعبيرات ، دون أن يعنى ذلك جموداً عند أشكال معينة ، بل إن تنوع المجتمعات وتغير العصور

---

(١) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى ٥٢ دار الشروق ، ط ٨ /١٩٨٨مصر .

الذى هو الترجمة الصحيحة لصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان .. هذا التنوع قد مكن المسلمين – فى ظل الثوابت والرأى العام بحسه الإسلامى – من أن يبدع أنماطاً حضارية مختلفة الشكل والتعبير ، لكنها ذات روح واحدة " وإن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامى لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى فلكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية ، وأن يلبى حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة على شرط اتباع مناهج صحيحة فى الاجتهاد ، والاتفاق بين جمهور فقهاء الأمة الإسلامية فى كل جيل ، بحيث لا تدع الأمر فوضى لكل من شاء كيف شاء [1] .

لقد كان المجتمع الإسلامى إسلامياً مرتبطاً بالشريعة ، ولو لم يكن كذلك لظهر فيه مجتهدون يبيحون ما حرم الله كما وقع فى المجتمعات الغربية التى أباحت زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة وتقنين الشذوذ الجنسىّ ودعوة جمعّياته .. وهى المجتمعات التى يخطئ بعض المؤرخين ويطلقون عليها (مجتمعات مسيحية) .. فعلى الرغم من الثروة الفقهية الإسلامية الهائلة ، لم نجد مذهباً فقهياً ، أو مجتهداً ما ، يبيح زواج الرجل بالرجل كما باركت

(١) المرجع السابق ، ٥٢ .

المجتمعات المسيحية العلمانية ذلك ولم نجد أى مذهب فقهى ـ ودعنا من الخارجين على الإسلام أو المأجورين من قبل دين آخر أو نِحلة أخرى ـ يبيح الزنا أو الربا أو الخمور أو الدعارة الرسمية !!

ومن البديهيات أن المسلمين عاشوا حياة اجتماعية عبر أماكن شاسعة ، وبصورة كثيرة ، وأن هذه الحياة الاجتماعية قامت على نظم أسرية وعلى عادات وتقاليد وعلى أنماط من العلاقات الموجهة من قبل المبادئ المسيطرة .. وقد كانت لهؤلاء المسلمين بالتأكيد نشاطات يتكسبون منها ـ زراعة أو صناعة أو حرفاً أو تجارة أو مهناً عقلية وثقافية ـ كما كان لهم بالضرورة أسواق للتبادل والبيع والشراء !

وفى هذه العصور ونتيجة تخلف المواصلات كان مستحيلاً أن تعيش أمة عالة فى أساسيات حياتها على أمم غيرها ، ولذلك كان على المجتمع الإسلامى أن يعمل ، وأن يكفى نفسه على الأقل ، وإلا تعرض للفناء ، ولقد بقى المجتمع الإسلامى ـ على الرغم من كل ما وقع فيه من انحرافات ـ بعيداً عن صورة الإقطاع الأوروبى الذى يملك فيه الإقطاعى الأرض ومن عليها من عبيد الأرض الذين لا يملكون حق الانتقال إلا بإذن السيد كما كان الحال فى العصور الوسطى . وكان الذى حماهم من " حتمية " الإقطاع ـ ماركسياً ـ تحاكُم ذلك المجتمع إلى شريعة الله ، برغم كل الظلم الناشئ من

تجاوز بعض حكامهم فيما يتعلق بأشخاصهم لحدود الله ، ولكن النـاس ــ فى ظلهم ــ يتحاكمون فيما بينهم بشريعة الله [1] .

وقد بقى هذا المجتمع ــ بالرغم من كل مـا وقـع فيـه مـن تجاوزات ــ مجتمعا يحرص على نشر العلـم ويفتـح المـدارس ، ويوقف عليها من الأوقاف ما يكفل للمعلمين والمتعلمين معاشهم مـن سكن وملبس ومطعم ، وذلك قبل أن تنهض أوروبا نهضتها وتعـرف قيمة العلم .

وبقى المجتمع ــ رغم كل انحرافاته ــ نظيفًا إلى حد كبير مـن الفاحشة ، الخلقية بسبب التزامه بتعاليم دينه فى أمر الحجاب ، ومنـع الاختلاط والتبرج فى أمر الزواج المبكر ، وبقـى مجتمعًـا متآخيًـا متكاملاً مترابطًا .. يخرج المسلم فيه مـن المغـرب حتـى يصـل إلى إندونيسيا لا يوقفه حاجز واحد من حواجـز الحـدود السياسـية أو " القومية " أو " الوطنية " .. فقد كان فوق كل ذلك !!

وبقى ــ برغم كل ما اعتوره من اضطراب الأمن عند ضعـف سلطان الدولة ــ أقل مجتمعات الأرض جرائم وأكثرها طمأنينة وأمنًا وبركة [2] .

---

(١) محمد قطب : حول التفسير الإسـلامى للتـاريخ : ص ١٤٥ ــ نشـر المجموعـة الإسلامية ــ السعودية ، ط١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

وكان للمرأة المسلمة مكانها ونصيبها فى صناعة هــذه الحيــاة الاجتماعية فى إطار الشريعة الإسلامية وهى أن بناء الإنســان هــو أول الأبنية فى صناعة الحضارة ، وأن التضحية بوظيفة بناء الإنسان عن طريق هدم الأسرة تمزيق للبناء الاجتماعى كله ، وقــد ضمــت كتب التراجم والطبقات وأعلام النساء ما يؤكد وجود المرأة فى الحياة الإسلامية وجودًا بنّاءً تحكمه شريعة الإسلام .

ونحن لا نريد أن نسهب فى الحديث عن موضــوع (الــرق) والموالى بصفة عامة ، إلا اننا نستطيع القول بأن المجتمع الإســلامى كان مجتمع أحرار وأن باب الحرية كان مفتوحًا أمام كل من يشــعر فى نفسه بقدرته على تحمل أعباء الحرية ومسئوليتها ، وذلــك عــن طريق حق المكاتبة الذى يذهب بعض الفقهاء – إلى أنه حق للعبــد ، وأن على السيد أن يستجيب للرقيق متى طلــب المكاتبــة وأن علــى المجتمع الإسلامى أن يساعد العبد فى الحصــول علــى حريتــه !! وأن يدفع له من المال ما يعينه على تحقيق ذلك ، كما جاء فى آيــة : ﴿ **البِرّ المشهورة** ﴾ [1] .

ومع أننا لا نريد أن نسهب القول فــى هــذا الموضــوع ولا أن نوضح كيف أن الإسلام حرر الإنسانية كلها نفسيًا وفكريًا وتشــريعيًا

(١) البقرة : ١٧٧ .

عندما جعل العبودية لله وحده وأرسى الحقوق الإنسانية العامة إلا إننـا في مقامنا هذا نوضح أن هذه الطائفة كانت تقف في المساجد موازيـة للسادة سواء بسواء ، وقد استطاعت أعداد كبـيرة منـها أن تحتـل مناصب رفيعة ، بل أن تشكل دولاً خدمت الإسلام كثيرًا ، وأن تكون جيوشًا ذادت عن عقيدة الإسلام وبلاد المسلمين في معارك خـالدة .. وهذا يؤكد ما قلته من وجود أرضية فكرية ونسيج نفسـي وأخلاقـي وتشريعي يسود هذا المجتمـع ، بصـرف النظـر عـن الوظيفـة الاجتماعية للطبقات المختلفة !!

وفي إطار هذه الحياة الاجتماعيـة الشـاملة والعادلـة كـانت للمسلمين مساجدهم التي كانت تقوم بدور قائد ، ولم تكن مجـرد دور للعبادة إذ أن هذا المفهوم الذي يؤدي إلى (الرهبنة) والانعـزال أو الانسحاب لم يعرف في الإسلام ، لا في داخل المسجد ولا في الحيـاة الاجتماعية كلها .. فالمسجد يتفاعل مع الحياة . والأرض كلها مسـجد تخضع لقيم الإسلام ، وتهدف إلى عمارة الأرض لتحقيق عبـادة الله ونشر عقيدة توحيد الله في الأرض .. وعندما نريد الحكم على مـدى إسلامية هذه الحياة الاجتماعية ــ أو الحكم بعدم إسـلاميتها ــ فإننـا يجب أن نقوم " بتفكيك " شتى النشاطات والعلاقات الفردية والأسـرية والاجتماعية العامة .. أي أننا ــ بإيجاز ــ يجب أن نرصد المجتمـع الإسلامي والناس الذين يعيشون فيـه فـي كـل أوضاعـهم وبكـل

شرائحهم ، مسلطين الضوء على شبكة العلاقات الاجتماعية كلها فـي شتى أحوالها . من جد وترويح وحزن وفرح وسلام وخـلاف وزواج وطلاق و .. إلى آخر كل الخيوط المشكلة لنسيج الحياة الاجتماعية .

وفى الحياة الاقتصادية لكى يكون حكمنا موضوعيًا كذلك يجـب أن نرصد مدى تمثيل المجتمع الإسلامى لأبواب المعـاملات كلـها ونقيس ما كان سائدًا من النشاطات الاقتصادية على أحكام المعـاملات الإسلامية فمثلاً : هل كان المجتمع الإسلامى فى عصوره المختلفـة يخضع لسيادة الربا ؟ أو أن الربا كان ــ ككـل صـور الشـذوذ ــ سلوكًا منبوذًا فرديًا يقاومه المجتمع ؟

هل كان المجتمع الإسلامى ــ إذن ــ مجتمع (القرض الحسن) والتكافل الاجتماعى (ونلاحظ هنا ظاهرة الحبوس والأوقـاف التـى امتاز بها المجتمع الإسلامى ؟)

هل كانت الزكاة فقط هى الواجب الذى يؤديه المسلم أو أنه كـان يؤدى واجبات كثيرة مثل حقوق الجيران ، وحق المـاعون ، وحـق الضيافة ، وحق ابن السبيل فى الإيواء ، إلى آخر هذه الحقوق ؟

وهكذا نتـدرج إلـى شـتى النشـاطات الاقتصاديـة والماليـة والاجتماعية لنقدم الرأى المحايد فيها ؟

ولعلنا نتساءل هنا : لماذا لم تظهر ــ ولم تنجح ــ كـل صـور الشيوعية أو الاشتراكية فـى العـالم الإسـلامى ؟ بينمـا ظـهرت

أو استشرت فى المجتمعات الغربية وكادت تجتاح الغرب كله لولا أن بادر إلى تحقيق صور من التكافل والضمان وحقوق الإنسان سددت الباب فى وجه الشيوعية وأطلقت الإنسان إلى عالم العلم والعمل والإبداع ؟ .. أليس قيم تحقيق التكافل والضمان وحقوق الإنسان هى التى حالت دون وجود صراع اجتماعى أو اقتصادى فى المجتمع الإسلامى على النحو الذى ظهر فى حضارات الإغريق والرومان وأوروبا الحديثة !!

ولكى نحكم على الحياة الثقافية والفكرية والتعليمية يجب أن نقوم بعملية التحليل نفسها ، فنتبع كل الخلايا العلمية والتثقيفية بدءاً بالدور والكتاب وأروقة المساجد ، ومن ثم المدارس النظامية والجامعات والرباطات والمكتبات العامة والخاصة .

إن الأمر ليس عملاً هينًا ولا بسيطًا ، ويجب أن يجتهد المؤرخون فيه ، كما اجتهدوا فى استقصاء الوقائع العسكرية وحياة الساسة وكل ما صغر من " أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام " [1] وغيرهم ممن بويعوا بعد الاحتلام !!!

لقد قدمت الشرائح المختلفة ــ ما تستطيع من جهد ، فأفرزت

---

(١) اسم كتاب للمؤرخ الكبير لسان الدين بن الخطيب .

لنا كياناً مستقلاً اسمه (الحضارة الإسلامية) .. وقد قام المسلمون أنفسهم — على نحو ما ذكرنا — بنقد مصادرهم ومؤرخيهم بهدف الوصول إلى الحق . وقد قاموا بهذا النقد وفق مبضع جرئ قوى لا يخشى فى الحق لومة لائم .. وقد استطاعوا — بهذا المنهج — أن يصححوا مفاهيمهم وسلوكياتهم ، وأن يحموا سيرة نبيهم وسنته القولية من كل أوهام يريد المغرضون والأعداء إقحامها لتشويه المثل الأعلى والقدوة وتضليل منهج المسلمين .

كما أن مصادر كثيرة — لم تأخذ حقها من الدراسة والإفادة بعد ، وقد ألمحنا إلى بعضها ككتب الطبقات والرحلات والجغرافيين والأدب والفقه — قد قدمت أنماطًا ونماذج من الحياة الاجتماعية والاقتصادية .. وهى تحتاج إلى أن تصبح هى وغيرها من كتب الحضارة — قبل كتب السياسة — مناط البحث التاريخى ، حتى نكتشف — بوضوح ويقين — كيف أن الشريعة كانت تحكم هذه الحياة الإسلامية المهيمنة والصانعة لنسيج الحياة وشبكة العلاقات .

ومن الجدير بالتوضيح أن ما يفعله بعضهم من ربط مستوى التزام الساسة بالإسلام بالتزام المجتمع ، ومنهم مدرسة الأستاذ " محمد أركون " — إنما هو ارتباط فى غير موضعه .. ولو لزم وجود هذا الارتباط فى مسيرة الأديان والعقائد لما عاش أى دين ..

ولكان اليهود ــ مثلاً ــ قد ذابوا فى الشعوب الأخرى ؛ إذ أنـــهم قلما قامت لهم دولة فى التاريخ .. ومع ذلـــك تحملـــوا الاضطـــهاد والاغتراب ، وبقوا حتى اليوم يعلنون هويتهم الدينية حتى فـــى اســـم الدولـــة التـــى اســـتطاعوا تســـخير القـــوى الكـــبرى لإنشـــائها .. " إسرائيل " .. بل ربما كان الاضطهاد السياسى دافعًا لهم إلى مزيـــد من التمسك والالتزام .

وفى التاريخ الإسلامى كانت رغبة المجتمعات الإسلامية الدائمـــة هى الالتزام بالإسلام والتمسك به " إنها ما استسلمت بسهولة لتقـــاليد الحكام ، بل شقت طريقها المستقل بمواجهتهم ، بل إنها أعلنت ثورتها عليهم من أجل إعادتهم إلى جادة الصواب " (١) ..

وعندما كانت تعجز ، فإنها كانت تقـــاوم بـــالفعل الحضـــارى ، فيعمل الدعاة والفقهاء والمحتسبون على إنكار المنكر ومقاومة مفاســـد السياسة ، ويتطوع المجتمع المسلم ببناء المؤسسات الإسلامية التـــى تغنيه عن الحاكم ، ويحاصر بها أهواء الحكام المنحرفين . ومعظـــم المساجد والكتاتيب والأوقاف الخيرية كانت تقوم على أكتاف الشعوب المسلمة .. ولا زالت حتى اليوم فى أكثر بلاد الإسلام !!

---

(١) عماد الدين الخليل : ملاحظات فى تاريخ المجتمع الإسلامى ، ص ٨ ، نشـــر مكتبـــة الثورة القاهرة .

وعبر عصور الحضارة الإسلامية المختلفة كان المجتمع الإسلامى ـ اعتماداً على بنائه للفرد والأسرة المسلمة والتربية والتعليم الإسلاميين ـ يتحرك فى عملية جهاد مستمر لصياغة حياته وفق شريعة الإسلام ، ماضيًا على جهات ثلاث متناغمة ومتكاملة : حركة ذاتية عميقة لتمكين الإنسان الفرد من المزيد من التحقق بالإيمان ، وحركة جماعية أفقية لتمكين المجتمع المسلم من حماية نسيجه وإحكام حبكته ، وحركة صوب الخارج تحمل بعدًا عقديًا يتوسل بالسياسة أو القوة العسكرية حينًا ، وبالفعل الحضارى والكلمة المؤمنة الهادية فى أكثر الأحايين (١) .

وبالمنظور الشمولى نفسه نرصد الإطار العام لحركة التاريخ الإسلامى وحضارته ، من خلال فاعلية الإنسان المسلم وإبداعه ، فنجد هذا الإطار تنتظمه مراحل أساسية كبرى هى (٢) :

---

(١) بتصرف : المرجع السابق ، ص ٥ .

(٢) انظر : بتصرف : محمد عبد الهادى أبو ريدة . روح الحضارة الإسلامية ومميزاتها ، دراسة . نشرت ضمن أعمال قسم الثقافة الإسلامية فى جامعة الإمام ١٤٠٣ هـ .

١-مرحلة تكوين الإنسان المؤمن (النموذج) :

تكويناً دينيًا شاملاً لحياة التدين والحياة الدنيا وهذا تم فـــى عـــهد النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، وهو أساس كل تحضر إســلامى ، وفى كثير من مراحل التاريخ الإسلامى تمت محاولات ناجحة لبنـــاء إنسان مسلم يقتفى أثر النموذج ، وكان لهؤلاء دور كبير فـــى إثـــراء الحضارة الإسلامية ونهوضها فى محاط كثيرة .

٢- مرحلة تبليغ أساسيات الحضارة الإسلامية للأمم :

وهى مرحلة الفتوحات الكبرى التى كان العصر الأموى قمتــها ، وقد تكرر نموذجهم فى التاريخ على يد المرابطين فــــى المغــرب ، وبنى أمية فى الأندلس ، والمماليك والأكراد والعثمانيين فـــى بعــض عصورهم .

٣- مرحلة اللقاء الحضارى بين الإسلام وبين حضارات الأمم :

وقد تفاعل المسلمون مع حضارات غيرهم ، وسرعان ما تفهموا روح الحضارات الأخرى وعناصرها وقاموا ببناء حضارة روحــــها وجوهرها الإسلام . ورداؤها كل مظاهر التحضر الإنسانى ، ، وهـذا تحقق فى العصر العباسى حتى أواسط القرن الرابع للـــهجرة ــ مــع بعض الملاحظات على عصر المأمون ــ وهذا النموذج تكــرر فـــى فتح الإسلام للهند ، وفى التفاعل الإسلامى الواعى (وليس العلمانى) مع حضارة أوروبا المعاصرة .

٤- مرحلة الإبداع مع التنوع :

وهى تمتد حتى أوائل القرن الثامن الهجرى وإن كانت قد عاقتها غزوات المغول وما أعقبها ، وفى هذه المرحلة كان التأثير الكبير لحضارة الإسلام فى الحضارة الغربية الأوروبية وهى التى لم تزدهر إلا بعد المعرفة بالإسلام وحضارته (١) .

٥- **مرحلة الحضارة عند مختلف شعوب الإسلام** فى فارس والهند ومصر وفى الدولة العثمانية .

٦- مرحلة الركود والتخلف تحت سيطرة الغرور الحضارى وقهر الاستعمار .

٧- **مرحلة النهضة الحديثة فى مختلف بلاد الإسلام** فى القرنين التاسع عشر والعشرين وما تبع ذلك من ظهور الصحوة ، وبروز الرؤية الإسلامية والمناهج الإسلامية لكتابة التاريخ ولتأصيل علوم الاجتماع والتربية والنفس والإعلام والأدب بمنظور حضارى إسلامى متميز (٢) .

ومرة أخرى ، ونحن نقدم نظرة تقويمية أخيرة لتاريخنا الإسلامى وحضارته .. بعد تقديمنا بعض التفصيلات الضرورية عن

---

(١) الموضع السابق .

(٢) د / محمد أبو ريدة ــ المكان السابق .

العصور التى " علمنها " الأستاذ محمد أركون بعدد من الأسطر !!

ــ مرة أخرى ــ ونحن نقدم هــذه النظــرة التقويميــة العامــة لتاريخنا الإسلامى وحضارتنا الإسلامية ــ نوضح أن المنهج العلمــى يقتضى من الذين يحكمون على تاريخنا ومســتوى ارتبــاط أبنائــه بالشريعة ــ أن يقوموا بالبحث الدقيق فى نسيج الحضارة الإســلامية أو الفحص العميق لمكوناتها وعناصرها الفاعلة ، وخلاياها المتعــددة فى مستويات القاعدة ، وفى مستوى القمة ، وفى مســتوى الإبــداع الفكرى ، وفى مستويات العمل الجسدى والنشاطات اليومية .. كمــا يقتضى المنهج تتبعا منصفا للحركات التى يحلو لبعضهم أن يســميها " حركات ثورية " مع أنها فى تصورنا " حركات إصلاحيــة " أرادت العودة بالأمة إلى الكتاب والسنة ، حتى إن أخطأ بعضها فى أســاليب التغيير .. هذا إذا استثنينا بعض الحركات الموجهة من عقائد مضــادة كحركة الباطنية والقرامطة .

لقد كان كل المختلفين فى حضارتنا يطالبون بالعودة إلى الإســلام الصحيح .. إن القاسم المشترك الذى لا يختلف حوله .. وكلهم يظــن أنه الأقرب للصواب فى دعوته ومنهجه .. وكلهم مجتهد ، ولم يكــن أحدهم ليدعو لنبذ الإسلام وإلا لانتهى فــورا ، لأن الخــروج علــى الإسلام اتجاه مرفوض من الأمة كلها !! ولم يكن الأمر ــ كما فهمت

المدرسة العلمانية وعلى رأسها الأستاذ أركون ـــ مجرد تمسح في الإسلام أو تدثر به لتحقيق أغراض شخصية !! بل كان الإسلام ـــ بيقين ـــ هو الهدف المشترك ، وكان مصدر الخلاف بينهم تغليب حق على حق ، أو اعتماد بعضهم ورفض الآخرين للتأويل ، أو ترجيح فقه على فقه آخر .

وهذا الخلاف بالطبع ـــ قد يحتدم عند وجود خلل في السلوك الذى هو من طبيعة البشر ، فتتقدم جماعة للتصويب ، ويقاومها الآخرون لخروجها عن الطريق الشرعى ـــ فى رأيهم ـــ أو لأنهم فى موقف يبصرون فيه بعض الحقائق التى لا يبصرها الآخرون .

ونحن بالطبع لا نقوِّم هنا شتى السلوكيات التى وقعت فى عصور تاريخية كثيرة ، كى نثبت صحة هذه الحقيقة (١) بدءاً بخلافة على ومعاوية (رضى الله عنهما) وحتى ثورة البربر فى المغرب ضد ولاة الجور الذين كانوا يبقون الجزية على من أسلم ، وأيا كان

---

(١) انظر فى الحديث عن الخلاف بين على ومعاوية ـــ رضى الله عنهما ـــ : العواصم من القواصم ـــ لأبى بكر ابن العربى بتحقيق محب الدين الخطيب ، وانظر فى تحقيق الفتن فى المغرب : ابن عذارى : البيان المغرب ، بتحقيق إحسان عباس ، وغيرهما من المصادر .

الأمر فعندما كانت تتكاثف الأخطاء وتكل السواعد عن حمل الراية الإسلامية والحضارة كانت سواعد أخرى فتية تتقدم ، فتنتهى المرحلة السابقة ، وتبدأ مرحلة لاحقة .. لتكن السواعد القادرة على حمل الراية سواعد عربية أو بربرية أو تركية أو فارسية أو كردية أو حتى مماليك من هؤلاء الذين كانوا عبيدا فرفعهم الإسلام بحضارته إلى مستوى القيادة والسيادة .. ليكن هؤلاء أو أولئك .. المهم أن يكونوا تحت الشعار الثابت شعار الإسلام .

إن حضارة الإسلام حضارة منفتحة قادرة على المواجهة ، وتغيير أدوار البطولة بين أبنائها ، والكشف عن طاقاتها الكامنة ، واستثارة كل الطاقات .

وفى نهاية هذا الشوط ، وبالإضافة إلى كل ما ذكرناه .. نقول : إن رصد المجتمع الإسلامى من داخله يحتاج إلى تحليل اجتماعى خاص ، فهذا المجتمع يمزج بين العبادات والمعاملات ، وتمتد فيه مساحة العبادة ، فتصبح الأرض كلها فى مفهوم المسلم وسلوكه مسجدا .

ولا يصلح للمسلم أن يعطى للمسجد يوما وينفلت من العبادة بقية أيام الأسبوع . وعندما ننظر فى حقيقة العبادات والشعائر التى يطالب المسلم بها . ولا يستحق صفة الإسلام إذا لم يؤدها . نجدها

ذات طبيعة اجتماعية ، فهى غير محصورة فى المسجد أو الفرد أو الأسرة .

فالصلاة ذات أبعاد اجتماعية ، والحضور لها فى المسجد يحقق صلات ووظائف اجتماعية .. وصلة الزكاة بأنواعها المختلفة بالحياة الاجتماعية لا تحتاج إلى دليل . ويتفرع عن العبادة وظائف اجتماعية لها قيمتها ، وعلى رأسها بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحقوق الجيران ، وزيارة المرضى ، وحق الضيافة الذى يذهب فقيه مثل ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) إلى وجوبه ثلاثة أيام .. كما يذهب إلى أن (حق إعارة الماعون) فرض كذلك فى حدود الطاقة .. ولو ذهبنا نستقصى شتى العبادات والأوامر والنوافل المؤكدة وفروض الكفاية لوجدنا أن المسلم ـ بحكم كونه مسلما ـ يعيش الحياة كلها محكوما بشريعة الله ، ولا يجد إلا الله يتجه له بنشاطه ، لأن هذا من مقتضيات توحيد القصد والغاية . " ومن ثم تعد كل خدمة اجتماعية وكل عمل من أعمال الخير عبادة [1] . قال ﷺ : **[الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار]** [2] ... وإذا رصدنا بعض الأخطاء فهذا ـ كما ذكرنا

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، ص ١٥ ، طبع دار الشروق ، ط٧ / ١٩٨٠م ، ١٤٠٠هـ .

(٢) رواه الشيخان والترمذى والنسائى .

سلفا ـــ ضرورة بشرية لأن المجتمـــع الإســلامى ليــس مجتمــع معصومين أو ملائكة .. بيد أن ضمير المســـلم ووعيــه يرفضــان الأخطاء ، ولم يسع المجتمع الإسلامى إلى تقنين خطأ قط أو تحويلــه إلى قاعدة كما تفعل المجتمعات المادية والعلمانية فعندما عجـــزت أمريكا منذ نصف قرن عن تحريم الخمور وأنفقـــت مليـــارى دولار عادت فأباحتها بقانون طرب له الشعب الأمريكـــى ، أمـــا المجتمـــع الإسلامى فهو يقاوم الذين يبيحون المحرمـــات ويرفـــض فتـــاواهم ، ويصوغ حياته ، ـــ أفرادا أو عـــائلات ـــ ، أو تقـــاليد وعـــادات ، أو تربية أو أخلاقا .. وفق شريعة الإسلام .

وإذا نظرنا إلى خضوع المجتمع الإسلامى للشريعة من زاويـــة انبثاق أفكار المسلم وسلوكه عن عقيدته ، مثلما تنبثق الأخلاق الماديـــة عن الاشتراكية ، والأخلاقية الفردية والبورجوازية عن الرأســمالية ، والسلوكيات المتخبطة عن العقائد الوثنية ، ـــ فسوف نجد الصلة قوية بين عقيدة التوحيد وقيم المسلم المسيطرة عليه . " فهناك قيم وأخـــلاق تنبثق من تصور أن هناك ألوهية واحدة وعبودية شاملة لكـــل شـــئ وكل حى .. وهناك أخلاق تنبثق من التصـــور الإســـلامى للوجـــود وعلاقته بخالقه ، ولمركز الإنسان فى هذا الوجود ولغايـــة وجـــوده ووظيفته ، ونوع ارتباطاته وعلاقته بالكون المادى وبالأحياء وببنـــى

جنسه كذلك ، وعلاقة هؤلاء جميعـــا بـــالله "[1]ــ وبإيجـــاز : فـــإن الأوضاع الاجتماعية بجملتها ، والأوضاع السياسية تطبيـــق واقعـــى للقيم المنبثـــقة من هذا التصور [2] .

وبالإضافة إلى الترابط العضوى بين العقيدة والشريعة من جانب ، وحياة المسلم من جانب آخر ، فثمة طبيعة أخـــرى للإســـلام تجعـــل الترابط بين حياة المســـلم ودينـــه ترابطـــا قويـــا لا ينحصـــر فـــى دائرة العبادات ــ مع اتساعها ــ ولا المعاملات ــ مع اتساعها ــ بل إن العلاقات التشريعية الإسلامية تغطى كل النشاطات البشـــرية فـــى المجتمع ، وليس هناك منطقة يشعر فيها المسلم بأنه خـــارج دائـــرة الثواب والعقاب ، ولئن كانت المصادر الشرعية صادرة عن الوحـــى فإن التطبيق الحى لأصولها فى واقع الحياة جعلها تثمر ثروة فقهيـــة تراكمت أحكامها من خلال الصلة المباشرة بين الجمهور والفقـــهاء ، فالناس يقصدون الفقهاء بمشكلاتهم ، ويقصدون القضاة بمنازعتهم وهم يجدون من الفقهاء والقضاة والمحتسبين والعلماء الرأى والتوجيـــه ، والكل يأخذ من شريعة الإسلام [3] !!

---

(١) العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، ٢٧٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) طارق البشرى : ندوة التراث وتحديات العصر . القاهرة ١٩٨٤ (مركـــز دراســـات الوحدة العربية) .

وفى ضوء هذه الحقائق يتجلى لنا بيقين ــ أن القول الذى يلوكــه العلمانيون حول عدم تطبيق الشريعة فى التـــاريخ الإســلامى بعــد الراشدين ــ يمثل غاية فى الاســتخفاف بــالعقل البشــرى ، وهــو يؤدى ــ كما يقول الكاتب والمفكر " غير المنحاز لتراثنا " (محمــد عابد الجابرى) ــ إلى عدمية مخيفة ــ إلى " العدم التــاريخى " [1] ــ فأين سنضع ألاف بل عشرات الآلاف من الفقهاء الذين عرفهم تــاريخ الإسلام ؟ وأين سنضع كتب الفقه والاجتهادات والفتاوى ؟ ونحــن إذ نغلق هذه الأحكام التعسفية نتساءل مع الجابرى : ما حقيقـــة إســلام أجدادنا وأسلافنا ؟ ــ ألم يكونوا مسلمين ؟ ألم يطبقوا الشـــريعة فـــى عباداتهم وعقود زواجهم ومعاملتهم ؟ إننا نقول : الإسلام دين ودولة .. نعم ، وقد كان كذلك بالفعل ، أما إذا قلنا إن الشريعة لم تطبـــق منـــذ الرسول عليه الصلاة والسلام أو منذ الراشـــدين ، فمعنـــى ذلـــك أن الإسلام لم يكن دينا مطبقا ، ولا كان دولة ، طوال الأربعة عشر قرنا المنصرمة .. فهذا غير صحيح تاريخيا ، وغير مقبول منطقيا .. إنـــه قول يجر إلى عدمية مخيفة تتركنـــا بـــدون هويـــة ودون تـــاريخ .. وبالتالى بدون حاضر وبدون مستقبل !!

---

(١) انظر بتصرف كتابات محمد عابد الجابرى فى " المسألة الثقافية " ص ٦٧ وغيرهـــا نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، وانظر الجابرى" الدين والدولة وتطبيق الشـــريعة " ص ٦٢ ومواطن كثيرة) بيروت ١٩٩٦ .

تاريخنا وحضارتنا .. من التفسيرات الإسقاطية إلى التوظيف الحضارى

ـ بعيدا عن الإسقاطات والتفسيرات التحريفية لتاريخنا .. يجب أن نلتفت إلى ضرورة توظيف تاريخنا الحضارى فى خدمة واقعنا واستشرافاتنا المستقبلية ..

ـ إننا لن نعيش فى (جنة) الماضى غافلين عن المستقبل ، بل سندرس كل تاريخنا البشرى ـ بإيجابياته وسلبياته .. لنستفيد من تجارب الإيجاب والسلب معا .. وهذا هو المنهج القرآنى فى فقه التاريخ .. وكل الأمم الناهضة من حولنا تجعل من تاريخها ذاكرة تستلهمها .. فلسنا بدعا فى ذلك !!

ومنذ وعى الإنسان معانى التاريخ والحضارة والحكمة (الفلسفة) وهو يوجه الوقائع التاريخية لخدمة عقائده وأفكاره ، ويفسرها تفسيرا يحدد له إطار مستقبله فى ضوء الثوابت والخلفيات التى ورثها وآمن بها وترسبت فى وعيه التاريخى .

ـ وشيئا فشيئا حاول الإنسان غربلة بعض أفكاره ، والوصول إلى قدر من الموضوعية يتلاءم مع المنطق والعقل ، وفى أحيان

كثيرة اضطر إلى تفسير أفكاره وعقائده تفسيرا يحـــاول أن ينســجم مع المنطق ومع الموروث والمعتقد فى نسيج واحد !!

ـ ومهما وضــع اليــهود والنصــارى مــن لافتــات علميــة وموضوعية ، فمن المؤكد أنهم قد تــأثروا بعقــائدهم تــأثرا كبــيرا ومباشرا فى تفسيرهم للتاريخ وتقسيمهم لمراحله .

ـ وقد بدأوا تاريخهم وتنظيرهم بما بدأت به التوراة ، فرجعــوا إلى (الجنة) التى عاش فيها آدم وحواء قبل هبوطهما على الأرض ، وقسموا التاريخ إلى قسمين رئيسيين هما :

ـ المرحلة التى سبقت خروج آدم من الجنة ، والمرحلــة التــى أعقبت ذلك الخروج !! . وبالمثل فإن اليهود قــد اســتخدموا وقــائع طردهم من القدس أساسا لتاريخهم وترتيبهم الزمنى للأحداث .

ـ أما الإغريق فأتوا بفكرة مماثلة ، وهى فكرة اضمحلالهم بعـد أن كانوا فى عصر ذهبى ، وقسم أحدهم عصور التاريخ إلى خمســة أقسام هى : الذهبى والفضى والبرونزى وعصر الأبطــال والعصــر الحديدى . أما الآباء المسيحيون الأول فقد جعلوا العصر الذهبى قرينا بالعصر الذى عاش فيه الإنسان فى الجنة ، ثم ما تبعه مـــن وقــوع الخطيئة [(١)] ..

(١) هارى المربانز / ترجمة محمد عبد الرحمن برج : تاريخ الكتابة التاريخية جـ١ ص ٣٢ ـ طبــع الهيئــة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ م .

ـ وجاء مؤرخو العصور الوسطى (الأوروبية) فتأثروا بهذه التقسيمات ، وصاغوها صياغات أخرى ، واعتبروا العصر الوسيط استمرارا للامبراطورية الرومانية ، واعتبر المؤرخ (بلوندوس) ١٤٦٣م أن العصور الوسطى حقبة انفصلت فيها شعوب أوروبا الغربية عن روما ، ثم جاء المؤرخ الهولندى (كرستوف كيلر) بتقسيم عصور التاريخ إلى أقسامه التقليدية الثلاثة المشبعة بالروح الكنسية ، وهى التاريخ القديم الذى ينتهى بعصر قسطنطين العظيم ، والتاريخ الوسيط الذى ينتهى بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣هـ ، ثم التاريخ الحديث من سنة ١٤٥٣م فصاعدا [١] .

ـ وكان ظهور " مارتن لوثر " عودة جديدة إلى الرؤية المسيحية للتاريخ ، بل إن حركة الإصلاح الدينى بقيادة (كالفن) و (لوثر) أعطت الجهد البشرى فى تفسير التاريخ تقديرا أقل مما أعطته له الكنيسة فى سالف عهدها ، ولم يقتصر الأمر على أن تصبح العقيدة الدينية ، والمنظمات التابعة لها هى صاحبة المقام الأكبر والأول فى مقام البحث التاريخى ، بل إن التاريخ العالمى صور مرة أخرى على أنه الصراع الكبير بين الله والشيطان [٢] .

---

(١) المرجع السابق : ص٣٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ ــ ١٧٦ .

ــ ومع نهاية العصور الوسطى المسـيحية ، وبدايـة عصـر الكشوفات الجغرافية وخروج الأوروبيين فـى حركتـهم التوسـعية الاستعمارية ، وانتشارهم فى البحار وعلى اليابسة ، وتعرّفهم علـى الكرة الأرضية ، ومحاولتهم السيطرة عليها لحسابهم الخـاص ــ دون نظر إلى الحضارة الإنسانية العامة ومصلحة البشر .. فى هذا الوقـت نفسه الذى ذهب فيه (مـاجلان وكولومبـس وفاسـكودى جامـا) يكتشفون العالم ، وكان هناك آخرون من أمثال (برونوكوبر ينكـس وجاليليو وكبلر ونيوتن) يكتشفون خصائص النظام الكونى وحركـة الكواكب ، واستطاع كل من (بيكون وديكارت وجـون لـوك) أن ينظموا مغزى الاكتشافات العالمية فى فكر فلسفى مستقيم .. فى هـذا الوقت ظهر مؤرخون يحاولون أن يقدموا تفسيرًا اجتماعيًا يتسـاوق مع الاكتشافات الجغرافية الكونية ، وتألقت فكرة (تطور المجتمـع) تطوراً منتظمًا شأنه فى ذلك شأن الطبيعـة ، وكـان أبطـال هـذا التوظيف توظيفاً يتساوق مع الاكتشافات الأوروبية هم (فيكو وهيـوم وفولتير وكانت وجودوين وكندورسيه) .

ــ وقد ظهر تأثير هذه الفلسفة الطبيعية ، وكذلك ردّ فعل الفلسـفة الاجتماعية على كتابات التاريخ فـى كتابـات المدرسـة العقلانيـة للمؤرخين فى القرن الثامن عشر ، وأهم ما جاءت به هذه المدرسـة هو اتجاهها العام نحو توسيع التاريخ بحيث يتعدّى نطـاق الكنيسـة

والدولة ويشمل تاريخ المجتمع والتجارة والصناعة والحضـــارة فـــى أوسع معانيها [1] .

ـ ولم تنج فلسفة التاريخ من التوظيف ، فهى مثل منهج البحــث التاريخى تعرضت منذ نشأتها للتوجيه الفكرى والقومى والعقـــائدى ، فالمؤرخون المسيحيون بدءاً من (إيزيبوس) حتى (بوسويه) كـــانت لهم فلسفة تاريخية قائمة على المســيحية . وكـــان (فيكـــو) يمثـــل المرحلة الرومانسية فى كثير من النواحى ، ولا سيما فكرتــــه عـــن التغيرات التى تطرأ على الروح الجماعية ، وفكرته عن يد الله فـــى صنع أحداث التاريخ ، وكان يرى أن التقدم يتم على شـــكل دائـــرى حلزونى ، وقد قسم مراحل التطور التاريخى إلـــى ثـــلاث مراحـــل رئيسية وهى : الإلهية والبطولية والإنسانية .

ـ أما المدرسة الألمانية وعلى رأسها (هردر) (وعما نويـــل كانت ، وفيخته) ، فقد ظهر واضحًا إيمانها بـــالعنصر الألمـــانى ، وبالواقعية التى يمتاز بها هذا العنصـــر ، وبالحصيلـــة الديناميكيـــة للدوافع الشخصية ونتاج العمل والتزاوج بيـــن الظـــروف الخارجيـــة والروح الداخلية ، وقد قال فيخته بصراحة فى كتابه (رســـائل إلـــى الأمة الألمانية) (سنة ١٨٠٧م) : " إن الأمل فى المســـتقبل معقـــود

---

(١) المرجع السابق :ص ٢١٠ – ٢١٢ بتصريف .

على الشعوب الألمانية ، فهذه الشعوب مكونة من عُنْصرٍ نقى ، غير مختلط له معين لا ينضب من الحياة الروحية ومن القوة " (١) .

ولئن كانت هناك روابط مشتركة باعتبار عوامل التأثير والتأثر بين البلاد الأوروبية ذات التفاعل الحضارى المتقارب ، إلا أن التوظيف القومى والوطنى والمذهبى كان واضحًا فى كل هذه المدارس ، وحتى إذا ما جاءت الفلسفة المادية الماركسية ، فإنها قامت بتوظيف التاريخ وفلسفته للفكرة الأيديولوجية المسبقة ، وأرغمت الحقائق التاريخية على أن تكون فى خدمة الطبقة العاملة والصراع الطبقى وسيادة طبقة البروليتاريا ، وسقوط الرأسمالية أمام معاول الشيوعية ، كما وظّفته لخدمة الحرب على كل الأديان ، وإعلاء راية الإلحاد ، ثم جاء أرنولد توينبى ليقدم تفسيرًا أكثر (تفاؤلية) و (لاهوتية) يواجه به التفسير المادى ، فكان تاريخه سلاحًا فى يد الكتلة الغربية الليبرالية واجهت به فى أشدّ ساعات المحنة انتشار الفلسفة المادية الماركسية التى خضع لها ذات يوم مئات الملايين من البشر .

أما (أزوالد شبنجلر) الذى يظنه البعض أكثر حيادًا بالنسبة لآرائه فى فلسفة التاريخ ، حيث أعلن (اضمحلال الغرب ، وسقوط

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ بتصرف .

الحضارة الغربية) وأظهر تشاؤمه من المستقبل ، وذكر أن الحضارات تمر بدورة حلزونية رباعية هى الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وأكد أن الحضارة الأوروبية تمر الآن بشتائها القاسى !!

أما صاحبنا (شبنجلر) هذا فكان أوروبيًا مخلصًا فى الحقيقة ، لكن إخلاصه ـ وهو يوظف فلسفة التاريخ لحضارته ـ كان مثل توينبى .. إنه إخلاص الطبيب الصادق للمريض فى مرحلة لا تحتمل الحلول العاطفية !!

وبعد شبنجلر سار فلاسفة آخرون أوروبيون على المنهج نفسه فى توظيف التاريخ وتفسيره لخدمة الحضارة الأوروبية والرؤية النصرانية أو العلمانية ـ للتاريخ !!

* * *

وهكذا ، ومن خلال هذا العرض ، يتجلىّ لنا أنه منذ خمسة قرون ـ على الأقل ـ والبحث عن المنهج التاريخى الأصلح لكتابة التاريخ الإنسانى وفلسفة التاريخ يحتل من المفكرين والمؤرخين فى العالم مكانة عظيمة ، وتبذل فيه جهود شاقة رائعة سواء اختلفنا معها أم اتفقنا .. وبالطبع ليس لنا فى هذا المقام أن نتجاهل دور العلامة عبد الرحمن بن خلدون فى إيقاظ هذا الوعى التاريخى على المستوى العالمى كله .

ويعد العالمُ الإسلامى ـــ مع ذلك وللأسف ـــ نشـــازاً فـــى هـــذا البحث اللاهث ، فلا زال البحث التاريخى لا يـــهتم إلا فـــى القليـــل بقضيتى منهج البحث التاريخى وفلسفة التاريخ ، فضلاً عن التوظـــف لتجربتنا الحضارية فى مراجعة مشكلات الواقع وأعباء المستقبل .

والنظر إلى قائمة الأطروحات العلمية التى قُدمت فى جامعـــات العالم الإسلامى فى أقسام التاريخ والحضارة ، بالإضافة إلى بحـــوث المؤرخين والمفكرين يُؤكّد هذه الحقيقية !!

لكن القضية بدأت تطرح نفسها علينا بعمـــق ، بعـــد أن بطلـــت مقولة إقامة السور الحديدى الفكرى بيننا وبين العالم الأوروبى لحماية أنفسنا من أفكاره ومناهجه ، فضلا عن عبثية هذه المقولة فـــى ظـــل الأساليب الحضارية المعاصرة ، فإنها أيضاً مقولة لا تخدمنـــا حتـــى ولو نجحنا فى تطبيقها !!

إننا لابد أن نبحث فى بنائنا الداخلى ، وفى تطوير كياننا ، وفـــى البحث عن وسائل القوة فى داخلنا ومن خارجنا ، وفى فقه ســـنن الله الكونية والاجتماعية فى التطور والبقاء ، ولا سبيل لبقائنا فـــى هـــذا العالم إلا عن هذا الطريق .

إنّ تشريحاً قوياً يجب أن نقوم به ـــ بإخلاص وجرأة ـــ لتجربتنا فى التاريخ ، وإننا يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا فى الاعـــتراف بالحقيقة كما هى ، وفى تقويم هذه الحقيقة على ضوء الثوابت الإلهيـــة

التى نؤمن بأنها (المطلق) و (المثل العليا الحضارية) لنا وللإنسانية .

وجدير بالذكر أنه لم يعد ممكنا كتابة التاريخ غير مرتبط بتفسيره ، وذلك أن المنهج العلمى لكتابة التاريخ يُحكم الوشائج بين قبول الواقعة رواية (نقلاً) وقبولها دراية (عقلا) [1] .

وقد أصبح (فقه البيئة) الاجتماعية والنفسية والثقافية المسيطرة من أركان قبول الواقعة والحكم عليها منذ عصر ابن خلدون . ومهما كان لتفسير التاريخ من كيان مستقل فإن أجزاء كثيرة منه على الأقل فى معطياته الأولى ــ ستبقى مرتبطة بالوقائع التاريخية الجزئية لا تنفصل عنها .. [2]

إن هذه مسلّمة أغفلها المسلمون وبحثت عنها البشرية طويلاً !!

---

(١) يضرب الدكتور الجابرى مثلاً يستدل على استحالة إخضاع القرآن للدراسة التأويلية التطويرية لثبوت نسبته لله بخلاف غيره من الكتب ؛ فقد اجتمع الصحابة المتقاتلون (جميعاً) فى صفين على الخضوع للمصحف الذى دفعه أنصار معاوية فنسبة القرآن لله لا يرقى إليه شك .

(٢) لكل عصر مناخه (أخلاقياته) وعاداته السائدة ، فجيل كجيل الصحابة (رضوان الله عليهم) لا يمكن أن يتواطأوا على نص للرسول عليه الصلاة والسلام وهم الذين كانوا يبيعون الدنيا من أجل الدفاع عن دين الله وهم يعلمون بأن النار مصير من يكذب على الرسول (!!) .

وفى ضوء هذا البحث الإنسانى الدؤوب عن تفسير إنسانى موضوعى للتاريخ يتبدّى لنا أنه من حق الشرائح الإنسانية كلها أن تقدم ما لديها وصولاً إلى بعض المفاتيح ، وليس كل المفاتيح ــ لحركة التاريخ والكون .

وفى الوقت نفسه يجب على المسلمين أن يتقدموا ــ إنصافاً لرسالتهم وحضارتهم ــ بجهودهم فى مجال فلسفة كونية وتاريخية أصيلة تقوم على ركائز التصور الإسلامى الأساسى ..

ولعلّ أهم ما يميز الرؤية الإسلامية للتاريخ ويوجبها أن لها ثوابت تتصل بالقوانين والسنن الكونية التى لا تتغير ، وتتصل بالفطرة الإنسانية المركوزة فى الإنسان ، والتى لا تتغير ، هى كذلك وإن اختلفت وسائل التعبير عنها .. ويعدّ تشويه الفطرة اعتداء على (إنسانية الإنسان) ..

وأهم فرق بين التصور الإسلامى والتصورات الوضعية التى لا ترى علمية تفسير التاريخ ، أن الإسلام يؤمن بثوابت فطرية مركوزة فى الإنسان لا تتغير .. وهؤلاء يرون أن الإنسان يتطور فى بنائه الأساسى العضوى والنفسى والقيمى ..

ويرى التصور الإسلامى أن الجانب المعرفى والفكرى يتطور فى الإنسان ، لكن ذلك أيضاً يحتاج إلى ضوابط وعناصر تكمله ، فثمة معارف ثابتة يجب على الإنسان أن يتلقاها ــ نقلاً ــ لا عقلا ،

وهو ــ بطبيعته ذات الطاقة المحدودة ــ عاجز عن إدراك تفصيلاتها بعقله .. وثمة مسلمات فى الجانب المعرفى الكونى والاجتماعى يجب التسليم بها ..

وبعد ذلك فالمجال مفتوح لعمل العقل فى مساحة واسعة تنتظم تسخير الكون ، ومجالات العلوم والفنون والآداب ، وفقه النفس الإنسانية والطاقات الإنسانية المختلفة ،وفى استكشاف عظمة الله من خلال تدّبر آياته فى الكون والنفس ، وبالتالى استخلاص القوانين الطبيعية والاجتماعية .

* * *

إن قراءة تاريخنا وتاريخ الإنسانية بكل معطياته وشرائحه عملية ضرورية لكتابته كتابة موضوعية ..

وقراءة التاريخ لا تَعْنى قراءة الجوانب السياسية وحياة الحكام وأخبار الوقائع والحروب ، فتلك قراءة قد استهلكت ، وأخذت أكثر من حجمها ، وامتدت على حساب غيرها ، وأعمتنا عن قراءة تاريخنا وتاريخ الإنسانية الاجتماعى والاقتصادى والثقافى .. ومن شأن قراءة عاجزة كهذه ألا تصل بنا إلى اكتشاف السنن الفاعلة والعوامل المحركة .

ـ إن تاريخنا ليس فرداً فى هذا المجـــال .. فمعظـــم تواريـــخ العالم ـ إن لم يكن كلها ـ يشوبها سلوك معظم حكامها وعســكرييها أباطرةً كانوا أو قياصرة أو أكاسرة أو ملوكًا [1] ..

ـ فكيف يُصبح هؤلاء محور الدراسة التاريخية والحضاريـــة مع أنهم يمثلون أكبر جوانب السلْب فيها .. ؟!

ـ وإن عظمة كثير من الحضارات ـ وعلى رأسها الحضـــارة الإسلامية ـ أنها بقيت مصونة الجوهر بالرغم من الفساد الذى يجلبــه هؤلاء !!

ـ وأخيرًا ... فإننا عندما نتجه ـ عمليًا وبصورة جماعيـــة ـ للبحث فى أساسيات هذا التفسير ، فإن علينا أن نعيد قراءة حولياتنـــا التاريخية وموسوعاتنا الحضارية وكتـــب الفقــه والأدب والرجـــال والطبقات ، باذلين معظم الجهد فى التعرف على حياتنـــا الحضاريـــة التى تقوم على قضايا العقيدة والفكر والثقافة والعلـــم أولاً ـ وعلـــى النشاط الاجتماعى ـ ثانيًا ـ والنشاط الاقتصادى ـ ثالثًا ـ والنشـــاط السياسى والعسكرى ـ رابعًا !!!

---

(١) ومع قولنا هذا فنحن لا نسلِّم بالمقولات الشائعة الباطلة عن كثير من حكام الخلافـــات والدول الإسلامية وندعوا إلى دراستهم دراسة موضوعية منصفة .. وسوف نكتشف جديـدًا وعجيبًا !!!

ـــ ومن الواجب أن نصهر كل هذه الجوانب أو العناصر في بوتقة واحدة ؛ لأن الفعل الحضارى يتأثر بالبيئة المعايشة كلها ، مراعين ـــ فى الوقت نفسه ـــ النسبة المحدّدة لكل نشاط ، وأثره في الحضارة ، ومراعين ـــ أيضًا ـــ ترتيب العناصر وفق أولوياتها والنسب المحددة لها .

ـــ إن المنهج الصحيح للتعرف على المجتمع الإسلامى يقتضى التعرف على الأسس الفكرية ، والضوابط الأخلاقية ، والنظم المالية والقضائية والتجارية والسياسية ، وأهم المؤسسات وعلى رأسها المسجد ، ودور العلم ومقرراتها ومناهجها والقيم الموجهة لها ، ومقاصدها التربوية ..

ـــ كما يقتضى رصد حركة أو سلوك الشعب فى الأسواق ، وفى الزراعة والتجارة والصناعة ، وفى حركة الجهاد المنظم ، أو التطوعى (المطوعة والمرابطين) .. ويقتضى أيضًا مراقبة نوع حياتهم فى المواسم المختلفة ، عبادية أو ترويحية عبادية ، مثل حياتهم فى رمضان ، والتزامهم بصيامه وقيام ليله ، ومثل سلوكهم فى موسم الحج إن حجوا ، أو تفاعلهم معه إذا لم يحجوا ، وسلوكهم فى الأعياد الإسلامية : يوم الجمعة ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى .. ومناسبات الزواج ـــ والولادة (العقيقة) والأضاحى ..

ـــ وكل هذا الرصد يُنظر فيه مدى الالتزام بالشريعة وبالإسلام عقيدة وحضارة .. وما كتب فى الموسوعات الفقهية وكتب الفتاوى والأقضية والحسبة ونوازل الأحكام إنما هو الرصد الصحيح لارتباط الناس بدينهم وتحاكمهم إليه ، واستفْتائه فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى يُعَدِّلوا سلوكهم وفق أحكامه ، ويظلوا سائرين على هَدْيه .

وقد كان الفقه بشتى اجتهاداته محكومًا بالشريعة وأصليها الثابتين : القرآن والسنة ، وإذا حاد عنها كان مرفوضًا وليس إسلاميًا ، فحرِّيته محكومة بالإسلام ، ولذلك كان فقهًا إسلاميًا ، والمجتمع بدوره محكوم برأى عام ذى حس إسلامى يمنع من تثبيت أى شذوذ أو تقنين أى انحراف ، ولهذا كان مجتمعًا إسلاميًا تهيمن على فكره وروحه ونشاطاته ـــ بحق ـــ الشريعة الإسلامية !!

ـــ هذا هو درس التاريخ ـــ وتلك شهادته ـــ عندما نحلّله بباحثين عن الحق : ﴿**هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا**﴾ [1] صدق الله العظيم .

ومن الله الصواب ، وإليه المآب .

---

(١) الفتح : ٢٨ .

محتويات الكتاب

طبع بمطبعة وزارة الأوقاف